
السنابل
المغامرات المثيرة


الجاسوس
وقصص أخرى



رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة ، مصر

الطبعة الأولى ١٩٩٠

رقم الإيداع : ٨٣٧٥ / ١٩٩٠

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٠١٠ - ٩

طبع بمطابع دار العالم العربي



المغامرات المثيرة

الجاسوس وقصص أخرى



تأليف : پول ڤيكتور

أعدها بالعربية : خالد داد آغا و هالة البرلسي

رسوم : شكري هشام

مكتبة لبنان
بيروت

الطالبُ الإفريقيُّ

مِنْ غرايام ريد ، الأسْتاذ بِكُلِّيَّةِ القِدّيسِ جود في كِمْبرِدْج ، إلى المُقدَّم وِلْيَم ريد قائدِ الكَتيبةِ الثّالِثَةِ بِالقُوّاتِ المَلَكيَّةِ البريطانيَّةِ في ألْمانيا

كُلِّيَّةُ القِدّيسِ جود

كِمْبرِدْج

في ٣ يولْيَه (تمّوز)

عزيزي بل ،

مَضى نَحْوُ شَهْرَيْنِ مُنْذُ كَتَبْتُ لكَ آخِرَ خِطاباتي ، وَأعْتَذِرُ عَنْ هذا التَّأخيرِ الّذي لا أسْتَطيعُ أنْ أقدِّمَ لَهُ مُبرِّرًا مَقْبولاً ، أوْ على الأقَلِّ لَيْسَ كَعُذْرِكَ أنْتَ ؛ فَقَدْ كانَ عَلَيْكَ أنْ تَنْتَقِلَ مَعَ كُلِّ أفْرادِ كَتيبَتِكَ إلى ألْمانْيا ، وَمِنْ هُنا تَأخَّرْتَ في الكِتابَةِ إلَيَّ . وَيَرْجِعُ سَبَبُ

تَأخُّري في الكِتابَةِ إلَيْكَ لِمَرَضِ الصَّغيرِ بِل ، الّذي بَلَغَ الآنَ التّاسِعَةَ مِنْ عُمْرِهِ ؛ فَقَدْ فاجَأهُ ألَمٌ شَديدٌ في المَعِدَةِ اضْطَرَّنا إلى نَقْلِهِ إلى المُسْتَشْفى . وَعَلى الرَّغْمِ مِنِ انْشِغالي أنا وَديزي بِعَمَلِنا ، فَقَدْ كُنّا نَزورُهُ مَرَّتَيْنِ يَوْمِيًّا ، كَما كانَ عَلَيْنا أنْ نُعْنى بِهِ بَعْدَ أنْ غادَرَ المُسْتَشْفى بِالإضافَةِ إلى رِعايَةِ شَقيقَيْهِ . وَالآنَ وَقَدْ شُفِيَ بِل مِنْ مَرَضِهِ فَإنَّهُ يَبْعَثُ إلَيْكَ هُوَ وَشَقيقاهُ وَديزي بِتَحِيّاتِهِمْ .

مَهْلاً يا عَزيزي ؛ فَالأوْلادُ ، وَمَتاعِبُ الأسْرَةِ ، وَعَمَلي في الجامِعَةِ ، لَيْسَ فيها ما يُثيرُ ، فَحَياتي لَيْسَتْ كَحَياتِكَ بِحالٍ مِنَ الأحْوالِ ؛ لأنَّكَ رَجُلٌ عَسْكَرِيٌّ تَعيشُ حَياةً مُثيرَةً ، تَطيرُ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ ، بَيْنَما أظَلُّ أنا في كِمْبرِدْج ، وَهِيَ كَما تَعْلَمُ بَلْدَةٌ هادِئَةٌ فيها جامِعَةٌ وَنَهْرٌ صَغيرٌ ، وَهِيَ لَيْسَتْ بِالبَلْدَةِ الّتي يُمْكِنُ لِجَيْشٍ أنْ يُعَسْكِرَ بِها ، فَحَياتُنا مُخْتَلِفَةٌ حَقًّا وَلَمْ نَكُنْ كَذلِكَ عِنْدَما كُنّا صَبِيَّيْنِ . صَحيحٌ أنَّكَ كُنْتَ أفْضَلَ مِنّي في الرِّياضَةِ ، لَكِنَّنا كُنّا نَتَّفِقُ عَلى حُبِّ الأشْياءِ نَفْسِها ؛ نَتَسَلَّقُ الجِبالَ مَعًا ، وَنُجَدِّفُ في القَوارِبِ مَعًا . وَلَمْ يَحْدُثْ قَطُّ أنْ تَشاجَرْنا كَما كانَ يَحْدُثُ بَيْنَ الزُّمَلاءِ ، وَكَثيرًا ما تَساءَلْتُ لِماذا أصْبَحْتَ أنْتَ ضابِطًا وَأصْبَحْتُ أنا أسْتاذًا جامِعِيًّا ؟

وَلكِنِّي لَسْتُ حَزِيناً لِذلِكَ ، فَأنا أُحِبُّ حَياتَنا هُنا ، وَإنْ لَمْ يَكُنْ فيها ما يُثِيرُ ، وَيَسْتَحِقُّ أنْ أُحَدِّثَكَ عَنْهُ . فَأنْتَ مَثَلاً تَكْتُبُ لي عَنْ رِجالٍ وَطائِراتٍ وَمَدافِعَ ... لأنَّكَ تَلْتَقي بِالكَثيرينَ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ وَتَرى الكَثيرَ مِنَ الأماكِنِ المُثيرَةِ ، وَهُوَ ما لا يَتَوافَرُ لي ؛ فَماذا لَدَيَّ إذاً لأَكْتُبَهُ إلَيْكَ ؟

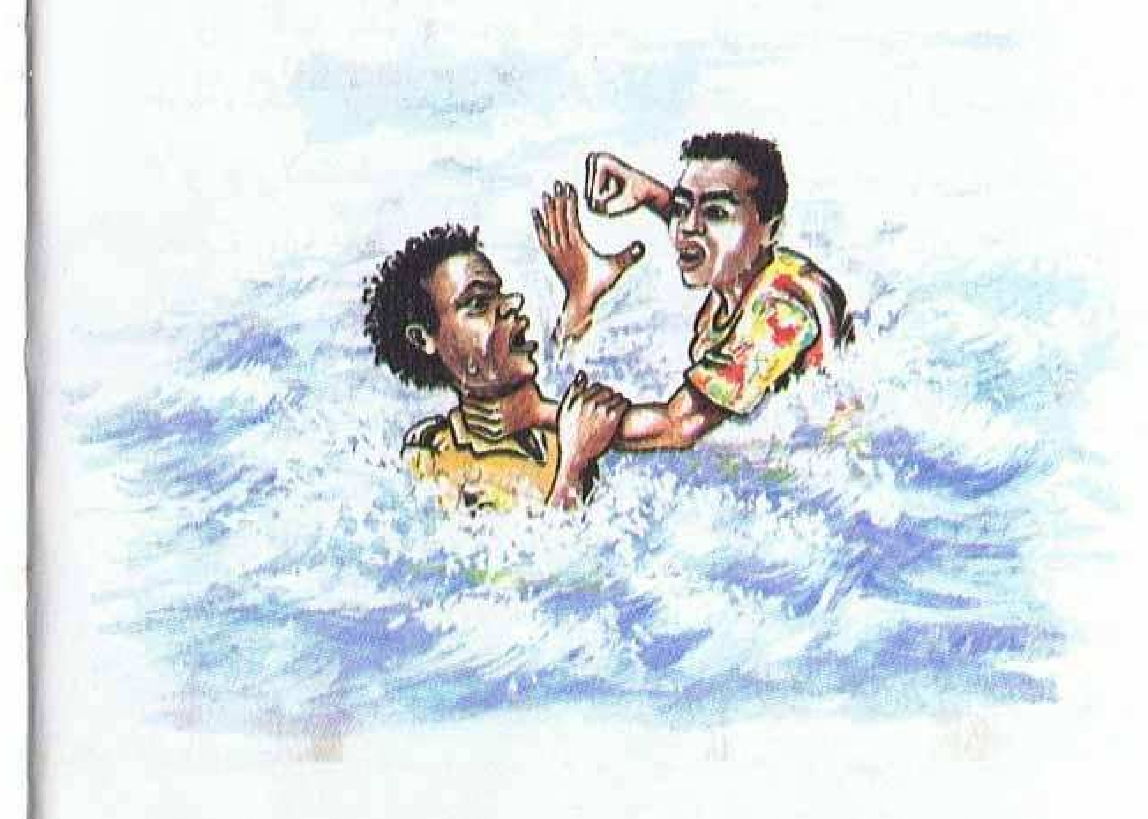
لَقَدْ تَذَكَّرْتُ شَيْئاً يُمْكِنُ أنْ أَقُصَّهُ عَلَيْكَ . إنَّها حِكايَةُ الطّالِبِ الإفْريقِيِّ ، وَهِيَ لَيْستْ في الواقِعِ بِالحِكايَةِ المُثيرَةِ ، وَلكِنَّها عَلى أيَّةِ حالٍ هِيَ الحِكايَةُ الوَحيدَةُ الَّتي صادَفَتْني .

بَدَأَتِ الحِكايَةُ عِنْدَما تَقاطَرَ آلافُ السُّيّاحِ إلى كِمبرِدْج ، وَكُلُّهُمْ يَرْغَبُ في زَوْرَقٍ يُجَدِّفُ بِهِ في النَّهْرِ . وَلَمّا كانَ أَغْلَبُهُمْ لا يُحْسِنُ التَّجْديفَ فَكانَ الكَثيرُ مِنْهُمْ يَسْقُطُ في الماءِ ، وَبَعْضُهُمْ يَفْقِدُ المُرْدِيَّ ، وَهُوَ العَمودُ الَّذي يُدْفَعُ بِهِ القارِبُ في الماءِ ؛ وَقَدْ يَصْطَدِمُ بَعْضٌ بِزَوارِقِ الآخَرينَ ، وَقَدِ استَخَفَّهُمُ المَرَحُ وَتَعالَتْ ضَحِكاتُهُمْ .

وَأنا كَأَغْلَبِ سُكّانِ كِمبرِدْج لا أَنْزِلُ إلى النَّهْرِ في الصَّيْفِ . وَلكِنْ حَدَثَ أنْ زارَنا أُسْتاذٌ جامِعِيٌّ أَمْريكِيٌّ ، وَأَبْدى رَغْبَتَهُ في مُصاحَبَتي إلى النَّهْرِ في زَوْرَقٍ ؛ لِمُشاهَدَةِ مَنْظَرِ الكُلِّيّاتِ مِنْ هُناكَ ، وَهُوَ مَنْظَرٌ يَسْتَحِقُّ المُشاهَدَةَ .

وَأنا كَما تَعْلَمُ أُحْسِنُ التَّجْديفَ ، فَقَدْ تَدَرَّبْتُ عَلَيْهِ سَنَواتٍ طَويلَةً، لكِنَّكَ في الصَّيْفِ وَمَعَ هذا العَدَدِ الكَبيرِ مِنَ الزَّوارِقِ مُخْتَلِفَةِ الأَنْواعِ ، لاتَسْتَطيعُ أنْ تَقودَ زَوْرَقاً في طَريقٍ مُسْتَقيمٍ دونَ أنْ يَصْطَدِمَ بِخَمْسَةِ زَوارِقَ أوْ سِتَّةٍ عَلى الأَقَلِّ . وَعِنْدَ مُروري بِالزَّوْرَقِ خَلْفَ كُلِّيَّةِ المَلِكِ رَأَيْتُ جَمْعاً مِنَ القَوارِبِ في وَسَطِ النَّهْرِ ، فَأَوْقَفْتُ زَوْرَقي وَانْتَظَرْتُ . وَكانَ إلى جانِبِنا زَوْرَقٌ فيهِ العَديدُ مِنَ الطُّلّابِ لَمَحْتُ بَيْنَهُمْ أَحَدَ طُلّابي ، وَهُوَ شابٌّ إفْريقِيٌّ في الرّابِعَةِ وَالعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ، وَكُنْتُ أُعْجَبُ بِهِ لِهُدوئِهِ وَاجْتِهادِهِ ، فَابْتَسَمَ كُلٌّ مِنّا لِلآخَرِ . وَفَجْأَةً اصْطَدَمَ قارِبٌ بِزَوْرَقِهِ الَّذي دارَ حَوْلَ نَفْسِهِ ، وَلكِنَّ الطّالِبَ لَمْ يَسْقُطْ في الماءِ ، وَظَلَّ مُحْتَفِظاً بِابْتِسامَتِهِ عِنْدَما نَظَرَ إلى القارِبِ الَّذي صَدَمَهُ ، وَكانَ بِهِ رَجُلٌ إفْريقِيٌّ أَيْضاً يُناهِزُ الأَرْبَعينَ مِنْ عُمْرِهِ. وَلكِنْ ما إنْ وَقَعَ بَصَرُ طالِبي عَلى هذا الرَّجُلِ حَتّى اخْتَفَتِ البَسْمَةُ مِنْ وَجْهِهِ ، وَانعَطَفَ فَجْأَةً بِالمُرْدِيِّ عَلى الرَّجُلِ الإفْريقِيِّ فَأَطاحَ بِهِ في النَّهْرِ ، وَكانَ في ذلِكَ مُفاجَأَةٌ بِالنِّسْبَةِ لي . وَلَمْ يَكْتَفِ الطّالِبُ بِذلِكَ ، بَلْ قَفَزَ إلى الجانِبِ الآخَرِ وَمِنْهُ إلى النَّهْرِ حَيْثُ سَقَطَ الرَّجُلُ ، وَتَماسَكا في شِجارٍ .

وَظَنَنْتُ أنَّ طالِبي يُحاوِلُ إغْراقَ الرَّجُلِ ، فَأَنْزَلْتُ المُرْدِيَّ ، وَعَبَرْتُ الزَّوْرَقَيْنِ ، وَنَزَلْتُ إلى الماءِ مُحاوِلاً أنْ أَمْنَعَ طالِبي الَّذي كانَ شابّاً



قَوِيًّا ، وَنَجَحْتُ في النِّهايَةِ في إبْعادِهِ عَنِ الرَّجُلِ قائِلاً : « كَفى يا دان ! كُفَّ عَنْ هَذا ! هَلْ جُنِنْتَ ؟»

نَظَرَ إلَيَّ دان وَقالَ : « لا يا سَيِّدي الأسْتاذَ ، أنا لَسْتُ مَجْنوناً .» لَكِنَّهُ تَوَقَّفَ عَنِ الشِّجارِ ، وَتَرَكَ الرَّجُلَ الآخَرَ . وَصَعِدْتُ مَعَ دان إلى زَوْرَقِهِ .

أمّا الرَّجُلُ الآخَرُ فَسَبَحَ إلى شاطِئِ النَّهْرِ حَتّى إذا بَلَغَهُ صَعِدَ إلَيْهِ

وَجَرى مُسْرِعًا . وَنَظَرْتُ إلى طالِبي مُتَسائِلاً : « مَنْ كانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ يا دان ؟ وَلِماذا تَشاجَرْتَ مَعَهُ ؟»

صَمَتَ دان وَلَمْ يُجِبْ .

وَحاوَلْتُ إخْراجَهُ مِنْ صَمْتِهِ فَسَأَلْتُهُ : « هَلْ كُنْتَ تَعْرِفُ هَذا الرَّجُلَ مِنْ قَبْلُ ؟»

أجابَ بَعْدَ بُرْهَةٍ : « لا يا سَيِّدي الأسْتاذَ .» أدْهَشَني ذَلِكَ ، وَلَمْ أسْتَطِعْ فَهْمَهُ ، وَقُلْتُ : « إنَّهُ إفْريقِيٌّ مِثْلُكَ ، وَيُخَيَّلُ إلَيَّ أنَّهُ رُبَّما...»

قاطَعَني دان : « لا ياسَيِّدي ، كُلُّ ماهُنالِكَ ... كُلُّ ما حَدَثَ أنّني كُنْتُ غاضِباً .»

سَأَلْتُهُ : « ما الَّذي أغْضَبَكَ مِنْهُ ؟»

أجابَ دان : « لأنَّ ... لأنَّهُمْ يَصْدِمونَ زَوْرَقَكَ مَرَّةً وَمَرَّتَيْنِ ثُمَّ ثالِثَةً ، لاتَمْلِكُ بَعْدَ ذَلِكَ إلا أن تَغْضَبَ .»

قُلْتُ : « وَلَكِنَّكَ كُنْتَ تُحاوِلُ إغْراقَ الرَّجُلِ .»

أجابَ بَعْدَ تَرَدُّدٍ : « سَيِّدي الأسْتاذَ ، في الواقِعِ أنا مُرْهَقٌ قَليلاً بِسَبَبِ الاسْتِعْدادِ وَالتَّجْهيزِ لِلامْتِحاناتِ الَّتي سَوْفَ تَبْدَأُ في الأسْبوع

القادِمِ ، وَالحَقُّ أنَّني أقْرأُ أكْثَرَ مِمّا يَنْبَغي .»

صَحيحٌ أنَّ امتِحاناتِهِ سَوْفَ تَبْدَأُ بَعْدَ أسْبوعٍ ، وَالعَديدُ مِنَ الطُّلابِ يَقْلَقونَ كَثيراً بِشأنِ الامْتِحاناتِ ، وَلكِنَّني أعْرِفُ دان مَعْرِفَةً جَيِّدَةً ، فَهُوَ طالِبٌ مُجِدٌّ وَدَءوبٌ ، وَلَنْ تَكونَ الامْتِحاناتُ صَعْبَةً بِالنِّسْبَةِ لِطالِبٍ مِثْلِهِ ، فَلِماذا يُقْلِقُهُ اقْتِرابُها ؟

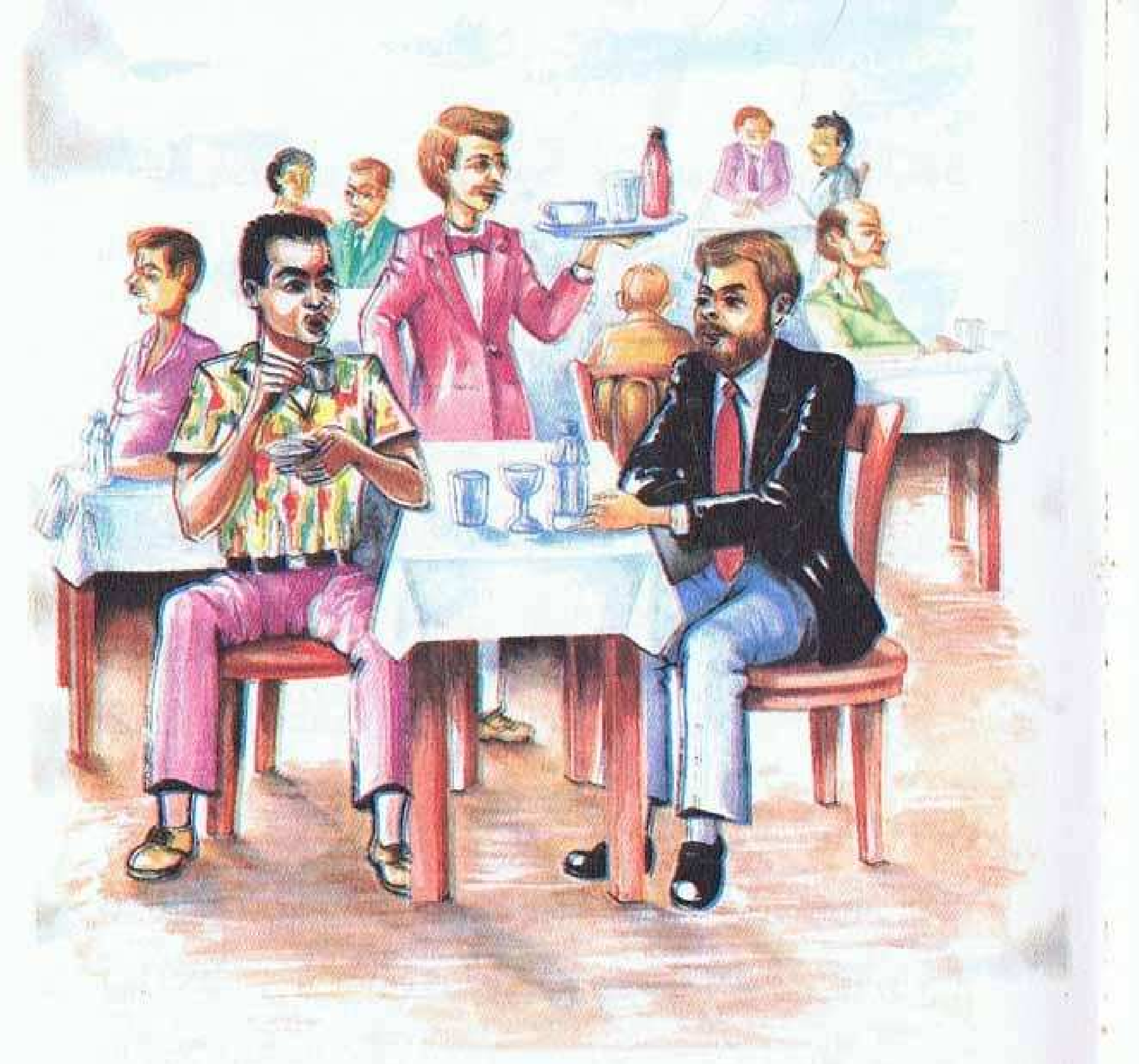
سَألْتُهُ : « أ لَمْ تَرَ الرَّجُلَ مِنْ قَبْلُ ؟»

أجابَ : « لَمْ أرَهُ قَطُّ يا سَيِّدي الأسْتاذَ .»

وَعِنْدَما تَوَجَّهْتُ في اليَوْمِ التّالي إلى الجامِعَةِ أمْضَيْتُ بَعْضَ الوَقْتِ في العَمَلِ ، ثُمَّ عَنَّ لي أنْ أمْضِيَ إلى حَيْثُ يُقيمُ دان لأتَحَدَّثَ إلَيْهِ ، فَلَمْ أجِدْهُ في غُرْفَتِهِ ، وَأخْبَرَني زَميلٌ لَهُ بِأنَّهُ ذَهَبَ لِيَحْتَسِيَ فِنْجاناً مِنَ القَهْوَةِ ، فَتَوَجَّهْتُ إلَيْهِ ، وَوَجَدْتُهُ يَجْلِسُ إلى طاوِلَةٍ في رُكْنٍ مُنْعَزِلٍ ، فَقُلْتُ لَهُ : « لَقَدْ جِئْتُ لِتَناوُلِ القَهْوَةِ يا دان ، فَهَلْ تَسْمَحُ لي بِالجُلوسِ مَعَكَ ؟»

وَلَمَحْتُ نَظْرَةَ قَلَقٍ تُطِلُّ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَلكِنَّهُ ابْتَسَمَ لي مُرَحِّبًا ، وَجَلَسْنا نَحْتَسي القَهْوَةَ ، وَنَتَحَدَّثُ في أمورٍ شَتّى .

وَبادَرْتُهُ فَجْأةً بِالكَلامِ : « سَمِعْتُ أنَّ حاكِمَ وِلايَتِكُمْ العَميدَ إدو



هُنا في إنْجِلْترا .» وَنَظَرْتُ إلى دان ، وَكانَ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ يَرْفَعُ فِنْجانَ القَهْوَةِ إلى شَفَتَيْهِ ، فَلَمَحْتُهُ لِلَحْظَةٍ خاطِفَةٍ يَتَرَدَّدُ في احْتِساءِ القَهْوَةِ في شَيْءٍ مِنَ الاضْطِرابِ ، وَلكِنَّ تِلْكَ اللَّحْظَةَ كانَتْ كافِيَةً لأعْلَمَ أنّي كُنْتُ مُصيباً فيما ذَهَبْتُ إلَيْهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : « إنَّ العَميدَ إدو هُوَ الرَّجُلُ الَّذي كانَ في الزَّوْرَقِ ، أ لَيْسَ كَذلِكَ يا دان ؟»

أجابَ دان بِقَلَقٍ : « أنا لا أعْرِفُ رَجُلاً بِهَذا الاسْم . أرْجوكَ يا سَيِّدي أنْ تَتْرُكَ هَذا المَوْضوعَ !»

قُلْتُ : « لَعَلّي أسْتَطيعُ مُساعَدَتَكَ يا دان إذا صَدَقْتَني القَوْلَ .»

نَظَرَ دان إلَيَّ بُرْهَةً ثُمَّ نَظَرَ بَعيداً ، وَقالَ : « لا أسْتَطيعُ ! مِنَ الصَّعْبِ أنْ تُدْرِكَ أحْوالَنا . إنَّ أهْلي ...» ، ثُمَّ صَمَتَ .

قُلْتُ : « إنّي أعْرِفُ أنَّ العَميدَ إدو هُوَ حاكِمُ وِلايَتِكُمْ ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟» ثُمَّ سادَتْ بَيْنَنا فَتْرَةٌ مِنَ الصَّمْتِ .

وَأنْتَ يا عَزيزي بِل تَعْرِفُ وَلاشَكَّ حِكايَةَ وِلايَةِ دورْيا ، مَوْطِنِ دان ؛ لَقَدْ تَسَلَّمَ الجَيْشُ السُّلْطَةَ فيها مُنْذُ خَمْسَةِ أعْوامٍ ، وَقَدْ حَدَثَ فيها الكَثيرُ مِنَ الاضْطِراباتِ الَّتي راحَ ضَحِيَّتَها العَديدُ مِنَ الأرْواحِ .

ثُمَّ تَحَدَّثَ دان بِمَرارَةٍ ، وَقال : « تُسَمّيهِ حاكِماً ! إنَّهُ يَنْبَغي ألا يَحْكُمَ أيَّ شَيْءٍ . إنَّهُ رَجُلٌ بِلا قَلْبٍ ، إنَّهُ في الواقِع حَيَوانٌ !»

ثُمَّ قَصَّ عَلَيَّ دان القِصَّةَ كامِلَةً : كانَ العَميدُ إدو وَطالِبي دان مِنْ قَبيلَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ ، وَعِنْدَما وَصَلَ إدو وَمَعَهُ مَجْموعَةٌ مِنَ الجُنودِ مِنْ قَبيلَتِهِ إلى قَرْيَةِ دان أطْلَقوا النيرانَ على القَرَوِيّينَ فَأرْدَوْهُمْ قَتْلى .

قالَ دان بِمَرارَةٍ : « لَقَدْ رَأيْتُهُمْ بِعَيْنَيَّ هاتَيْنِ يَقْتُلونَ النِّساءَ وَالأوْلادَ حَتّى بَلَغَ عَدَدُ القَتْلى مايَرْبو على مِئَةِ شَخْصٍ !»

سَألْتُهُ بِاهْتِمام : « وَهَلْ يَعْرِفُكَ إدو ؟»

أجابَ : « لا أعْتَقِدُ ، فَقَدْ تَسَلَّقْتُ هَضْبَةً ، وَشاهَدْتُ ماجَرى وَأنا مُخْتَبِئٌ بَيْنَ الأشْجارِ ، رَأيْتُ جَريمَةَ قَتْلِ الشُّيوخِ وَالنِّساءِ وَالأطْفالِ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَرَني قَطُّ قَبْلَ الأمْسِ .»

قُلْتُ : « إذاً ما سَبَبُ خَوْفِكَ ؟ إنَّهُ لَنْ يَسْتَطيعَ إيذاءَكَ هُنا .»

قالَ دان بِأسًى : « إنَّ أسْرَتي لا تَزالُ في دورْيا . لَقَدْ قَتَلَ أخَوَيَّ ، وَلَكِنَّ أمّي وَأبي وَأخْتي لا يَزالونَ هُناكَ ، وَقَدْ عَوَّلْتُ على بَذْلِ قُصارى جَهْدي لإحْضارِهِمْ إلى إنْجِلْترا خِلالَ أسْبوعَيْنِ أوْ ثَلاثَةٍ . لَكِنْ إذا عَلِمَ إدو بِذَلِكَ فَلَنْ يَسْتَطيعوا الخُروجَ ، بَلْ لَنْ يَبْقَوْا عَلى قَيْدِ الحَياةِ !»

قُلْتُ : « لَقَدْ فَهِمْتُ الآنَ ، لَكِنَّكَ ارْتَكَبْتَ حَماقَةً كَبيرَةً بِهُجومِكَ عَلَيْهِ .»

قالَ : « نَعَمْ أعْرِفُ ، لَقَدِ الْتَفَتُّ فَجْأةً فَرَأيْتُ المُجْرِمَ القاتِلَ ،

فَلَمْ أتمالَكْ نَفْسي ، فَما كانَ مِنّي إلا أنْ هاجَمْتُهُ كَما رَأيْتَ .»

قُلْتُ : « هَلْ تَعْتَقِدُ أنَّهُ سَوْفَ يَبْحَثُ عَنْكَ ؟»

قالَ دان : « لا أعْتَقِدُ ؛ فَقَدْ حَدَثَ كُلُّ شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ كَبيرَةٍ ، كَما أنَّهُ لَمْ يَرَني بِوُضوح ، كُلُّ ما يَعْرِفُهُ عَنّي أنَّ اسْمي دان ، فَقَدْ سَمِعَكَ تُناديني بِهَذا الاسْم ، وَهَذا لَيْسَ اسْمي في دورْيا ، إنَّهُ اسْمي في كِمبْرِدْج فَقَطْ . تُرى ماذا عَساي أنْ أفْعَلَ ؟»

قُلْتُ : « لَعَلَّهُ مِنَ الأصْوَبِ أنْ تُغادِرَ كِمبْرِدْج .»

قالَ : « لا ، يَجِبُ أوَّلاً أنْ أنْهِيَ دِراسَتي وَأحْصُلَ عَلى الشَّهادَةِ ، وَلاتَنْسَ أنَّ عَلَيَّ أنْ أجِدَ عَمَلاً لأعولَ أسْرَتي عِنْدَما تَأتي إلى إنْجِلْترا .»

كانَ دان عَلى حَقٍّ فيما قالَ ، فَهُوَ طالِبٌ مُجِدٌّ وَمِنَ السَّهْلِ عَلَيْهِ دُخولُ الامْتِحاناتِ وَالحُصولُ عَلى الشَّهادَةِ ، وَلَكِنَّني أعْلَمُ تَماماً أنَّ العَميدَ إدو رَجُلٌ خَطيرٌ جِداً ، فَقَدِ اكْتَشَفْتُ الكَثيرَ عَنْهُ .

قُلْتُ : « إنّي مُوافِقٌ تَماماً عَلى رَأيِكَ يا دان ؛ لَكِنَّ العَميدَ إدو لَنْ يَنْسى بِسُهولَةٍ هُجومَكَ عَلَيْهِ ، وَعَلَيْكَ أنْ تَتَوَقَّعَ المَتاعِبَ ؛ فَهُوَ رَجُلٌ شِرّيرٌ وَخَطيرٌ .»

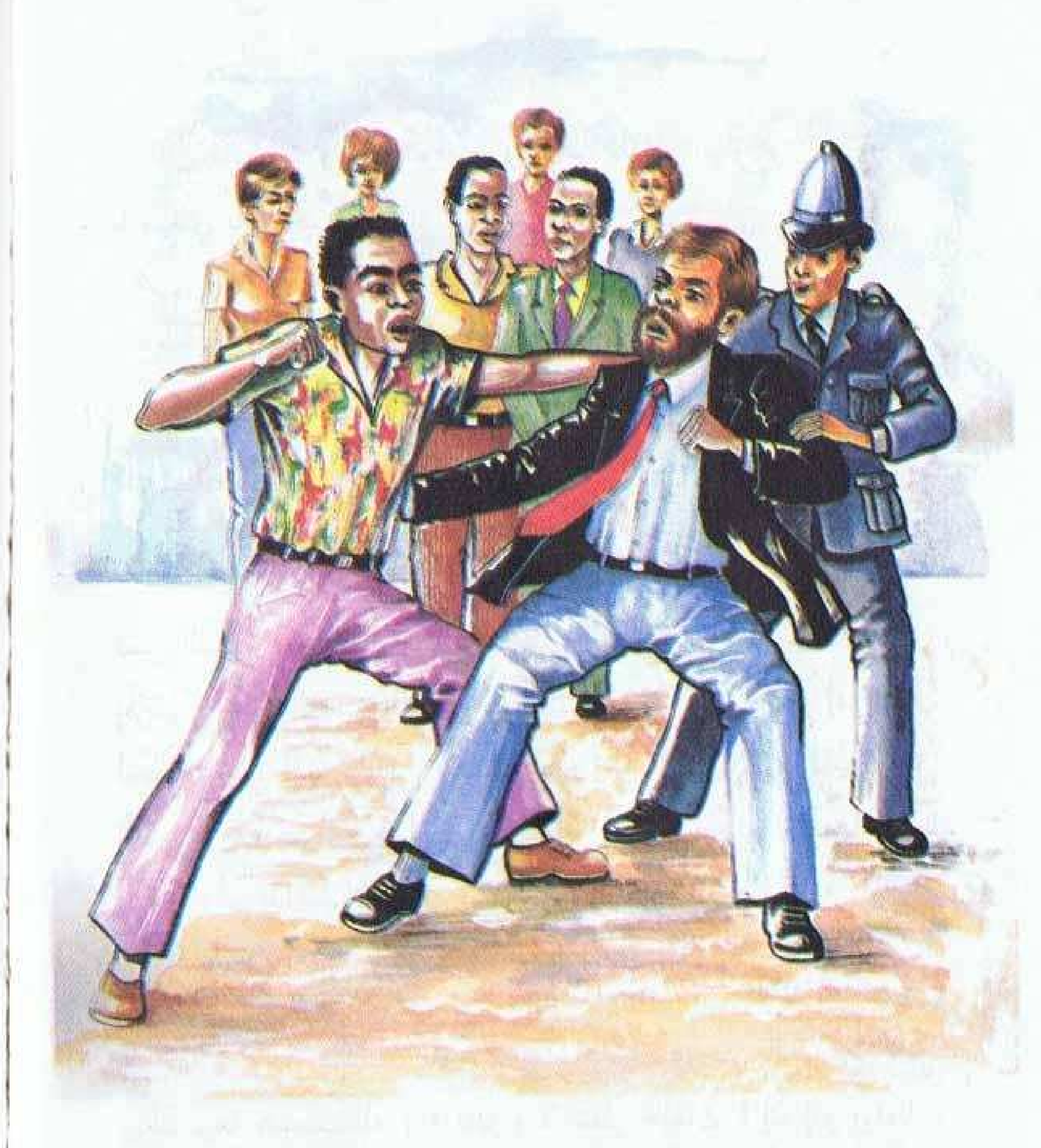
قالَ دان : « نَعَمْ ، أتَوَقَّعُها ، وَشُكْرًا لَكَ . أرْجو أنْ تَعِدَني يا سَيِّدي بِألا تُخْبِرَ أحَداً .»

قُلْتُ : « لَكَ هَذا .»

وَنَظَرَ إلى ساعَتِهِ وَقالَ مُبْتَسِماً : « حانَ وَقْتُ ذَهابي إلى كُلِّيَةِ المَلِكِ ، هَلْ تَأذَنُ لي يا سَيِّدي ؟»

قُلْتُ : « مَهْلاً ، إنَّها وِجْهَتي أيْضاً ؛ فَلْنَسِرْ مَعاً .» ثُمَّ دَفَعْتُ ثَمَنَ القَهْوَةِ ، وَغادَرْنا المَكانَ مُتَّجِهَيْنِ إلى الكُلِّيَّةِ ، فَلَمَحْتُ رَجُلَيْنِ إفْريقِيَّيْنِ عَلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ الطَّريقِ ، وَمَعَ أنّي لَمْ أرَ إدو سِوى لَحْظَةٍ واحِدَةٍ فَقَدْ ساوَرَني إحْساسٌ بِأنَّهُ أحَدُ الرَّجُلَيْنِ . وَكانَ الرَّجُلُ الَّذي يُرافِقُهُ ضَخْماً جِداً ، وَلَمَحْتُهُما يَنْظُرانِ نَحْوَنا ، فَلَمْ أعِرْهُما الْتِفاتاً ، ثُمَّ بَدَآ يَعْبُرانِ الشّارِعَ ، وَأحْسَسْتُ أنَّهُما يَتْبَعانِنا .

كانَ دان يَسيرُ بِجانِبي وَهُوَ يَتَحَدَّثُ بِغِبْطَةٍ عَنْ حَياتِهِ الجامِعِيَّةِ ، فَتَرَكْتُهُ يَسْتَرْسِلُ دونَ أنْ أنَبِّهَهُ إلى ماشاهَدْتُهُ ، وَرُحْتُ أفَكِّرُ في الأمْرِ . وَبَعْدَ بُرْهَةٍ هَمَسْتُ لَهُ : « دان ، لا تَنْظُرْ خَلْفَكَ ! إنَّ إدو وَراءَنا ، وَمَعَهُ أحَدُ رِجالِهِ . تَمالَكْ نَفْسَكَ وَلا تُبْدِ أيَّ انْفِعالٍ . إنّي أرى أحَدَ رِجالِ الشُّرْطَةِ عَلى بُعْدِ خَمْسينَ مِتْراً ، وَحَتّى نَصِلَ إلَيْهِ سَأخْبِرُكَ بِفِكْرَتي .» وَشَرَحْتُها لَهُ .



وَفي كُلِّ خُطْوَةٍ كُنْتُ أحِسُّ بِوُجودِ إدو وَصاحِبِهِ وَراءَنا . وَعِنْدَما اقْتَرَبْنا مِنَ الشُّرْطِيِّ ، تَظاهَرَ دان بِالغَضَبِ الشَّديدِ وَصاحَ فَجْأَةً :

« ماذا تَقْصِدُ ؟ إيّاكَ أنْ تَقولَ ذَلِكَ مَرَّةً أخْرى !» ثُمَّ ضَرَبَني عَلى

ذِراعي ضَرْبَةً شَديدَةً ؛ فَصِحْتُ :

« كُفَّ عَنْ هَذا !» وَضَرَبْتُ يَدَهُ لأبْعِدَها . وَما لَبِثَ دان أنْ ضَرَبَني بِيَدِهِ الأخْرى عَلى وَجْهي ، فَاشْتَبَكْنا في شِجارٍ عَنيفٍ حَتّى وَقَعْنا عَلى الأرْضِ ، فَهُرِعَ الشُّرْطِيُّ نَحْوَنا بِالطَّبْعِ ، وَأبْعَدَ دان عَنّي . وَفي تِلْكَ الأثْناءِ الْتَفَّ حَوْلَنا جَمْعٌ غَفيرٌ مِمَّنْ تَزْدَحِمُ بِهِمْ شَوارِعُ كِمْبِرْدْج خِلالَ مَوْسِمِ الصَّيْفِ ، وَمِنْ بَيْنِ هَؤُلاءِ كانَ إدو وَصاحِبُهُ يُراقِبانِ عَنْ كَثَبٍ .

وَقَفَ الشُّرْطِيُّ بَيْنَنا وَقالَ : « ما هَذا ؟ ما هَذا ؟» وَالْتَفَتَ إلَيَّ مُتَسائِلاً : « هَلْ ضَرَبَكَ هَذا الرَّجُلُ ، يا سَيِّدي ؟»

أجَبْتُ وَأنا أتَظاهَرُ بِالأسى : « نَعَمْ ، وَلَكِنَّني أدْرِكُ لِماذا فَعَلَ ذَلِكَ . إنَّني أسْتاذُهُ ، وَأعْرِفُهُ مَعْرِفَةً جَيِّدَةً ، وَفي أثْناءِ نِقاشٍ جَرى بَيْنَنا قُلْتُ عَنْ وَطَنِهِ تينانا ما خُيِّلَ إلَيْهِ مَعَهُ أنَّني أسَأْتُ إلى سُمْعَةِ بِلادِهِ الَّتي يَعْشَقُها .» وَكُنْتُ أتَحَدَّثُ مَعَ الشُّرْطِيِّ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ ، وَتَعَمَّدْتُ أنْ أنْطِقَ كَلِمَةَ تينانا بِصَوْتٍ واضِحٍ تَماماً (لَقَدْ سَبَقَ أنْ أخْبَرْتُكَ يا بِل أنَّ دان مِنْ دوريا ، وَلَيْسَ مِنْ تينانا) وَكانَ إدو عَلى مَرْأى مِنّي ، وَلَمَحْتُهُ يَتَحَدَّثُ إلى تابِعِهِ ، وَأظُنُّهُ نَطَقَ كَلِمَةَ تينانا .

وَتابَعْتُ حَديثي إلى الشُّرْطِيِّ قائِلاً : « الحَقُّ أنَّني ارْتَكَبْتُ حَماقَةً

عِنْدَما قُلْتُ عَنْ تينانا إنَّها بَلْدَةٌ لَيْسَ فيها مايُمْتِعُ . نَعَمْ أعْتَرِفُ بِأنَّها كانَتْ حَماقَةً مِنّي . إنّي ألْتَمِسُ لَهُ عُذْراً لأنَّهُ عَلى وَشْكِ التَّقَدُّمِ إلى الامْتِحاناتِ ، وَهِيَ تُسَبِّبُ لِلطُّلابِ الكَثيرَ مِنَ الاضْطِرابِ . تَصَوَّرْ أنَّهُ ضَرَبَ بِالأمْسِ رَجُلاً غَريباً عَنِ المِنْطَقَةِ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أنْ رَآهُ ، وَقَبْلَها ضَرَبَ طالِباً مِنْ زُمَلائِهِ ، لكِنَّ هذا أمْرٌ كَثيرُ الحُدوثِ قُبَيْلَ الامْتِحاناتِ ، وَلكِنَّهُ – وَالحَقُّ يُقالُ – طالِبٌ نابِهٌ وَطَيِّبٌ ، فَهَلْ تَسْمَحُ لَهُ بِالانْصِرافِ ؟»

قالَ الشُّرْطِيُّ : « لَيْسَ ذَلِكَ في مَقْدوري يا سَيِّدي ، لا بُدَّ مِنْ ذَهابِهِ إلى الشُّرْطَةِ ، وَأنْتَ أيْضاً سَتَذْهَبُ مَعَنا .»

قُلْتُ : « لا بَأسَ ، إذا كانَ لابُدَّ مِنْ ذَلِكَ .» وَلَمَحْتُ إدو وَتابِعَهُ يَتَحَدَّثانِ عَنّا . وَرَفَعَ إدو بَصَرَهُ إلى السَّماءِ ، وَاسْتَغْرَقَ هُوَ وَتابِعُهُ في الضَّحِكِ ، وَمالَبِثا أنْ عادا أدْراجَهُما وَمَضَيا بَعيداً ؛ وَهَكَذا نَجَحَتْ خُطَّتي . وَعِنْدَما رَوَيْتُ لِلضّابِطِ في قِسْمِ الشُّرْطَةِ القِصَّةَ كامِلَةً ، تَفَهَّمَ الأمْرَ وَأذِنَ لَنا بِالانْصِرافِ .

حَدَثَ ذَلِكَ مُنْذُ عِدَّةِ أسابيعَ ، وَقَدْ وَصَلَتِ الآنَ أسْرَةُ دان إلى إنْجِلْترا ، وَأعْتَقِدُ أنَّ نَتائِجَ امْتِحاناتِهِ سَوْفَ تُعْلَنُ قَريباً . وَأنا واثِقٌ بِأنَّها سَتَكونُ طَيِّبَةً . أمّا إدو فَلَمْ يَظْهَرْ في كِمبرِدْج مُنْذُ ذَلِكَ الحينِ .

تِلْكَ يا عَزيزي هِيَ حِكايَتي . أ لا تَرى مَعي أنَّ حَياةَ الأساتِذَةِ مِثْلُ حَياتِكُمْ فيها بَعْضُ الإثارَةِ ، وَلَكِنَّها بِالقَطْعِ لا تَرْقى إلى ما لَدَيْكُمْ مِنْ أحْداثٍ ، وَأنا لا أطْمَعُ في أكْثَرَ مِنْ هَذا ، وَيَكْفيني – بَلْ وَيَزيدُ – ما في تَصْحيحِ أوْراقِ الامْتِحاناتِ مِنْ إثارَةٍ . أرْجو أنْ تَكْتُبَ إلَيَّ مِنْ جَديدٍ في أقْرَبِ فُرْصَةٍ مُمْكِنَةٍ ، فَإنّي أجِدُ في رَسائِلِكَ مُتْعَةً لَنا جَميعاً ، وَالأوْلادُ يَرَوْنَ فيكَ رَجُلاً مُدْهِشاً ، وَيَرَوْنَني أعيشُ حَياةً رَتيبَةً لَيْسَ فيها ما يُمْتِعُ . مَنْ يَدْري ، لَعَلَّهُمْ عَلى صَوابٍ !

الأسْرَةُ كُلُّها تَبْعَثُ لَكَ بِتَحِيّاتِها القَلْبِيَّةِ .

أخوك المحب

غرايام

الجاسوسُ

كُلِّيَّةُ القدّيسِ جود
كِمبرِدْج في ١٧ أغسطس (آب)

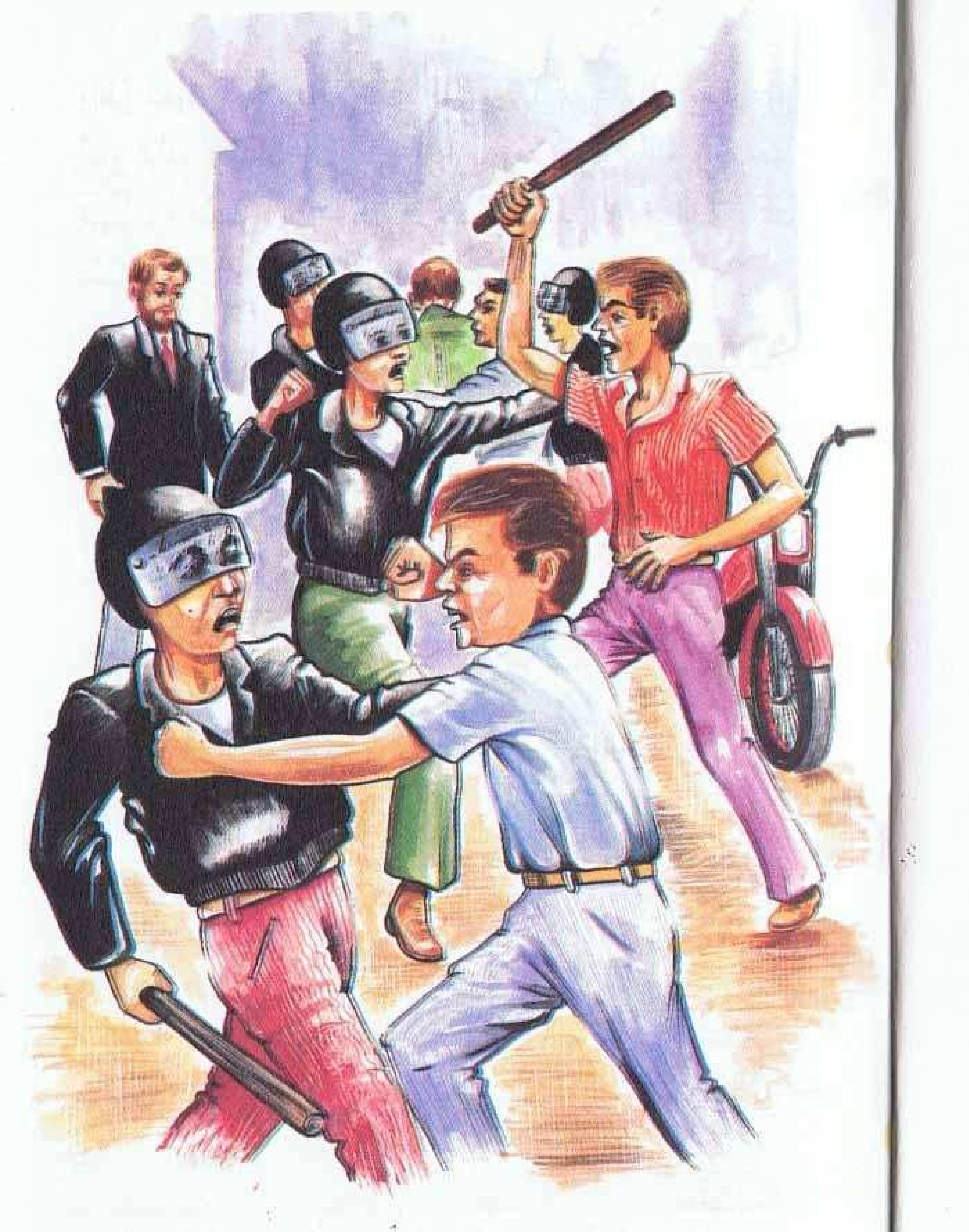
عزيزي بل ،

أجَلْ ، لَقَدْ قَرَأتُ في الجَريدَةِ عَنْ قِصَّةِ الجاسوسِ الَّتي حَدَّثْتَني عَنْها ، وَأرْجوكَ يا أخي العَزيز ألا تَلومَ نَفْسَكَ ، فَما مِنْ أحَدٍ يَسْتَطيعُ لَوْمَكَ ، فَهَذِهِ حالُ الدُّنْيا الَّتي نَعيشُها . فَحَتَّى الرِّجالُ المُمْتازونَ يُمْكِنُ أنْ يَكونوا جَواسيسَ يَعْمَلونَ لِصالحِ الطَّرَفِ الآخَرِ . كانَتْ كَلِماتُكَ لي تَقْطُرُ أسًى بِصِفَتِكَ الضّابِطَ المَسْئولَ ، كَقَوْلِكَ إنَّهُ كانَ واجِباً عَلَيْكَ أنْ تَعْرِفَ ما يَدورُ حَوْلَكَ . وَلَكِنْ كَيْفَ كانَ لَكَ أنْ تَعْرِفَ ؟! إنَّهُ لَمْ يَكُنْ سِوى واحِدٍ مِنْ صِغارِ الضُّبّاطِ ، وَكانَ ناجِحاً في عَمَلِهِ ، وَيُؤَدّيهِ عَلى أحْسَنِ وَجْهٍ ، وَلَمْ يَخْطُرْ بِبالِ أحَدٍ أنَّهُ مِنَ المُمْكِنِ أنْ يَكونَ جاسوساً ، وَلَكِنَّني مِنْ واقِعِ تَجْرِبَةٍ مُشابِهَةٍ

مَرَّتْ بي لَمْ يُدْهِشْني ذَلِكَ .

فَمُنْذُ ما يَقْرُبُ مِنْ عامَيْنِ ، حَدَثَ هُنا في كِمبرِدْج شَيْءٌ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَإنْ كانَ بِالقَطْعِ لايَرْقى في الأهَمِّيَّةِ إلى ماحَدَثَ عِنْدَكُمْ . وَسَأقُصُّ عَلَيْكَ القِصَّةَ عَسى أنْ تَجِدَ فيها ما يُسَرِّي عَنْكَ :

لَقَدْ نَشِبَ عِنْدَنا صِراعٌ صَغيرٌ مِنْ نَوْعِ تِلْكَ الصِّراعاتِ الَّتي تَعْرِفُها ، بَيْنَ أبْناءِ البَلْدَةِ الأصْلِيِّينَ وَ الوافِدينَ إلَيْها مِنْ طُلّابِ الجامِعَةِ . أنْتَ تَذْكُرُ - وَلاشَكَّ - ذَلِكَ الصِّراعَ القَديمَ الَّذي بَدَأَ مُنْذُ أكْثَرَ مِنْ مِئَةِ عامٍ ، وَالَّذي يَتَجَدَّدُ دائِماً بَيْنَ حينٍ وَآخَرَ ، فَأبْناءُ البَلْدَةِ تَتَمَلَّكُهُمُ الغيرَةُ وَالحَنَقُ مِنْ هَؤُلاءِ الطُّلّابِ الوافِدينَ الَّذينَ يَكادونَ يَمْتَلِكونَ البَلْدَةَ طَوالَ وُجودِهِمْ فيها ، وَيَعْرِفونَ أنَّ الطُّلّابَ ذَوي العَباءاتِ سَوْفَ يُغادِرونَها يَوْماً ما ، حَيْثُ يَتَقَلَّدونَ أفْضَلَ المَناصِبِ ، وَيُصْبِحونَ مِنْ عِلْيَةِ القَوْمِ ، وَسَوْفَ يَكونُ مِنْهُمْ مَنْ يَحْكُمُ إنْجِلْترا ذاتَ يَوْمٍ ، عَلى حينِ هُمْ أبْناءُ البَلْدَةِ قابِعونَ في بَلْدَتِهِمْ كِمبرِدْج ، وَلَنْ تُتاحَ لَهُمْ سِوى الأعْمالِ الَّتي لاتُدِرُّ رِبْحاً يُذْكَرُ ، وَلَنْ يَتَعَدَّوْا - أبَداً - كَوْنَهُمْ مُجَرَّدَ أهالٍ لِتِلْكَ البَلْدَةِ . وَكِمبرِدْج لَيْسَتْ بِدْعَةً في هَذا الأمْرِ ، فَهُوَ يَحْدُثُ تَقْريباً في كُلِّ بَلْدَةٍ فيها جامِعَةٌ ، فَهُناكَ دائِماً جانِبانِ بَيْنَهُما شِجارٌ وَشِقاقٌ مُسْتَمِرٌ .



وَحدَثَ مُنْذُ عامَيْنِ أنِ اشْتَدَّ الصِّراعُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ ، وَمِمّا زادَ الأَحْوالَ سوءاً قِيامُ عَدَدٍ مِنْ أَبْناءِ البَلْدَةِ بِتَشْكيلِ عِصابَةٍ مِنْهُمُ امْتَلَكَتِ الدَّرّاجاتِ البُخارِيَّةَ ، وَراحَ أَفْرادُها يَهْدِرونَ بِها في أَنْحاءِ البَلْدَةِ بَحْثاً عَنِ المَتاعِبِ ، وَأَطْلَقوا عَلى أَنْفُسِهِم اسْمَ « مَلائِكَةَ جَهَنَّمَ » ، وَكانوا دائِماً البادِئينَ في كُلِّ شِجارٍ يَنْشَبُ ؛ فَذاتَ مَرَّةٍ اعْتَدَوْا بِالضَّرْبِ عَلى ثَلاثَةٍ مِنَ الطُّلّابِ نُقِلوا عَلى أَثَرِ ذَلِكَ إِلى المُسْتَشْفى ، وَفي مَرَّةٍ أُخْرى اعْتَدَوْا عَلى طالِبٍ يُدْعى تِم بِلام بِأَنْ ضَرَبوهُ ضَرْباً مُبَرِّحاً نَتَجَ عَنْهُ إِصابَةٌ أَعْجَزَتْهُ عَنِ السَّيْرِ تَماماً .

وَذاتَ لَيْلَةٍ ، في ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ ، أَخَذْتُ طَريقي إِلى البَيْتِ قاطِعاً شارِعاً ضَيِّقاً بَيْنَ الكُلِّيّاتِ ، وَلَمْ أَلْمَحْ أَحَداً في طَريقي ، وَفَجْأَةً هَدَرَتِ الدَّرّاجاتُ البُخارِيَّةُ وَتَوَقَّفَتْ بِالقُرْبِ مِنّي ثُمَّ تَرَجَّلَ راكِبوها ، وَكانوا نَحْوَ خَمْسَةِ أَشْخاصٍ أَوْ سِتَّةٍ ، وَهَبَطوا إِلى الشّارِعِ يُعَرْبِدونَ وَيَضْحَكونَ .

وَفَجْأَةً سَمِعْتُ صَفيراً تَقَدَّمَ عَلى أَثَرِهِ ثَمانِيَةٌ أَوْ عَشَرَةٌ مِنَ الطَّلَبَةِ كانوا مُخْتَبِئينَ خَلْفَ الجُدْرانِ ، وَتَقَدَّموا نَحْوَ عِصابَةِ مَلائِكَةِ جَهَنَّمَ ، وَبَدَأَ أَحَدُهُمْ شِجاراً ، فَتَدَخَّلْتُ بَيْنَهُمْ مُحاوِلاً إِيقافَ المُشاجَرَةِ وَلَكِنَّ أَحَداً لَمْ يُعِرْني الْتِفاتاً . وَاسْتَمَرَّتِ المَعْرَكَةُ بَيْنَهُمْ فَتْرَةً مِنَ الوَقْتِ ،

وَنظرًا لِتفوُّقِ الطُّلابِ في العَدَدِ فَقَدْ تَغَلَّبوا على أَفْرادِ العِصابَةِ مِنْ أَبْناءِ البَلْدَةِ ، وَأَرْغَموهُمْ عَلى الفِرارِ . وَهُنا رَآني الطَّلَبَةُ ، فَصِحْتُ فيهِمْ : « اِسْتَمِعوا إلَيَّ جيِّداً، أنا أُسْتاذُكُمْ ريد. ما هَذا الَّذي كُنْتُمْ تَعْمَلونَ ، وَلِماذا ؟ إِنَّني غَيْرُ راضٍ أبَداً عَنْ هَذا الشِّجارِ .»

وَما إنْ نَظَرَ إلَيَّ الطُّلابُ حَتّى عَرَفوني فَفَرّوا هارِبينَ ما عَدا شابّاً واحِداً ، قَوِيَّ البِنْيَةِ ، طَويلَ القامَةِ ، بادَرَني مُتَسائِلاً : « ما الَّذي تَرْغَبُ في مَعْرِفَتِهِ ، يا أُسْتاذُ ؟»

قُلْتُ لَهُ : « مَنْ أَنْتَ ، وَما اسْمُكَ ؟»

أجابَ : « مارْتِن لين .»

قُلْتُ : « سَبَقَ أَنْ رَأَيْتُكَ ، فَأَنْتَ مِنْ كُلِّيَّتي – كُلِّيَّةِ القِدّيسِ جود، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

قالَ : « بَلى ، إِنَّني أَدْرُسُ لِلْحُصولِ عَلى شَهادَةٍ في اللُّغَةِ الإِنْجليزِيَّةِ .»

قُلْتُ : « هَلْ أَنْتَ زَعيمُهُمْ ؟ هَلْ أَنْتَ الَّذي نَصَبَ ذَلِكَ الكَمينَ ؟»

قالَ : « كَمينٌ ؟!»

قُلْتُ : « أَجَلْ ، لَقَدْ عَلِمْتُمْ بِمَجيءِ أَبْناءِ البَلْدَةِ هَؤُلاءِ ، فَكُنْتُمْ تَتَرَبَّصونَ بِهِمْ .»

أجابَ : « إِنَّهُمْ يَفْعَلونَ ذَلِكَ بِنا أَيْضاً .»

قُلْتُ : « وَلَكِنَّكُمْ تَعْرِفونَ أَنَّ ذَلِكَ سُلوكٌ مَعيبٌ ، أَمّا هُمْ فَلَعَلَّهُمْ لايَعْرِفونَ .»

أجابَ : « نَحْنُ نُحاوِلُ تَعْليمَهُمْ .»

سَأَلْتُ : « هَلْ أَنْتَ القائِدُ ؟ أَهِيَ فِكْرَتُكَ ؟»

أجابَ : « أَجَلْ .»

قُلْتُ : « لَقَدْ جُنِنْتَ وَلاشَكَّ ! إِنَّ ذَلِكَ سَيُؤَدّي حَتْماً إلى فَصْلِكَ مِنَ الجامِعَةِ .»

كُنّا قَدْ أَخَذْنا نَسيرُ صَوْبَ الشّارِعِ الرَّئيسِيِّ ، فَنَظَرْتُ إلى مارْتِن وَرَأَيْتُهُ صارِمَ الوَجْهِ ، وَلَمْ تَكُنْ تَلوحُ عَلَيْهِ أَيَّةُ عَلامَةٍ مِنْ عَلاماتِ الخَوْفِ .

قالَ : « لَسْتُ آسِفاً على شَيْءٍ ! لَقَدْ كانَ تِم پِلام صَديقاً لي . »

قُلْتُ : « إنَّ ما حَدَثَ لَهُ أمْرٌ مُحْزِنٌ حَقًّا ! وَلكِنْ ... »

قاطَعَني بِمَرارَةٍ : « حَقًّا ! أ كُنْتَ تَعْرِفُ ذَلِكَ يا أسْتاذُ ؟ »

وَتَوَقَّفَ عَنِ السَّيْرِ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنْ مِصْباحٍ في الشّارِعِ الرَّئيسِيِّ ، وَتَبَيَّنْتُ وَسامَةَ وَجْهِهِ عَلى الرَّغْمِ مِنْ صَرامَتِهِ . وَكانَ يَتَمَلَّكُهُ غَضَبٌ شَديدٌ ، وَمَضى يَتَحَدَّثُ مَعي طَويلاً بِمَرارَةٍ ، وَلَمَسْتُ في حَديثِهِ كَراهَتَهُ الشَّديدَةَ لأَبْناءِ البَلْدَةِ . وَكانَ فيما قالَهُ عَنْهُمْ : « إنَّهُمْ لا يُفَكِّرونَ ، وَلَيْسَ فيهِمْ أَيَّةُ نَزْعَةٍ إلى الخَيْرِ ، فَهُمْ أحْقَرُ مِنَ الكِلابِ! تَصَوَّرْ يا سَيِّدي أنَّهُمْ يَكْرَهونَ الشِّعْرَ ؟!» وَظَلَّ يُكَرِّرُ كَلِمَةَ الشِّعْرِ مَرّاتٍ عَديدَةً في حَديثِهِ ، وَأضافَ : « إنَّهُمْ أعْداءٌ لِلشِّعْرِ ، وَلِكِبارِ الكُتّابِ ، وَلِلْكُتُبِ القَيِّمَةِ ، وَيَنْبَغي عَلَيْنا مُكافَحَتُهُمْ كَما نُكافِحُ الجُرْذانَ ! »

قُلْتُ لَهُ : « ماذا تَقْصِدُ ؟ هَلْ تُريدُ قَتْلَهُمْ ؟ وَهَلْ يَصِلُ بِكُمُ الأَمْرُ إلى هَذا الحَدِّ ؟ »

قالَ : « عَلى الأَقَلِّ نُدْخِلُهُمْ جُحورَهُمْ . »

قُلْتُ : « كُفَّ عَنْ حَديثِكَ هَذا يا لين . إنَّني كَأُسْتاذٍ في هَذِهِ

الجامِعَةِ عَلَيَّ أنْ أقومَ بِواجِبي . »

نظَرَ إليَّ طويلاً ثُمَّ ابتسَمَ وَمضى في طَريقِهِ مُسْرِعًا .

وَفي اليَوْمِ التّالي سَألْتُ عَنْهُ أُسْتاذَ اللُّغَةِ الإنْجليزيَّةِ وَبَعْضَ مُدَرِّسيهِ؛ فَأجْمَعوا على أنَّهُ كَثيرُ المُطالَعَةِ ، مولَعٌ بِنَفائِسِ الكُتُبِ ، وَلاسِيَّما كُتُبِ الشِّعْرِ ، وَيَهْوى الموسيقى وَكُلَّ الفُنونِ الجَميلَةِ وَالأبْنِيَةِ الرّائِعَةِ . إنَّ الطَّلَبَةَ المُتَميِّزينَ لَيْسوا بِالضَّرورَةِ دائِماً مِنَ النّاجِحينَ في الحَياةِ العَمَلِيَّةِ ، وَلكِنَّ لين في رَأْيِ أُسْتاذِ اللُّغَةِ الإنْجليزيَّةِ وَمُدَرِّسيهِ سَوْفَ يَصِلُ ، وَلا رَيْبَ ، إلى قِمَّةِ السُّلَّمِ الاجْتِماعِيِّ .

وَتَملَّكَتْني الحَيْرَةُ فيما يَنْبَغي أنْ أفْعَلَ ؛ فَإذا أخْبَرْتُ رَئيسَ الجامِعَةِ بِأمْرِ تِلْكَ المُشاجَرَةِ ، فَإنَّهُ لَنْ يَتَرَدَّدَ في فَصْلِ لين ، فَما الَّذي يَجِبُ أنْ أفْعَلَهُ ؟

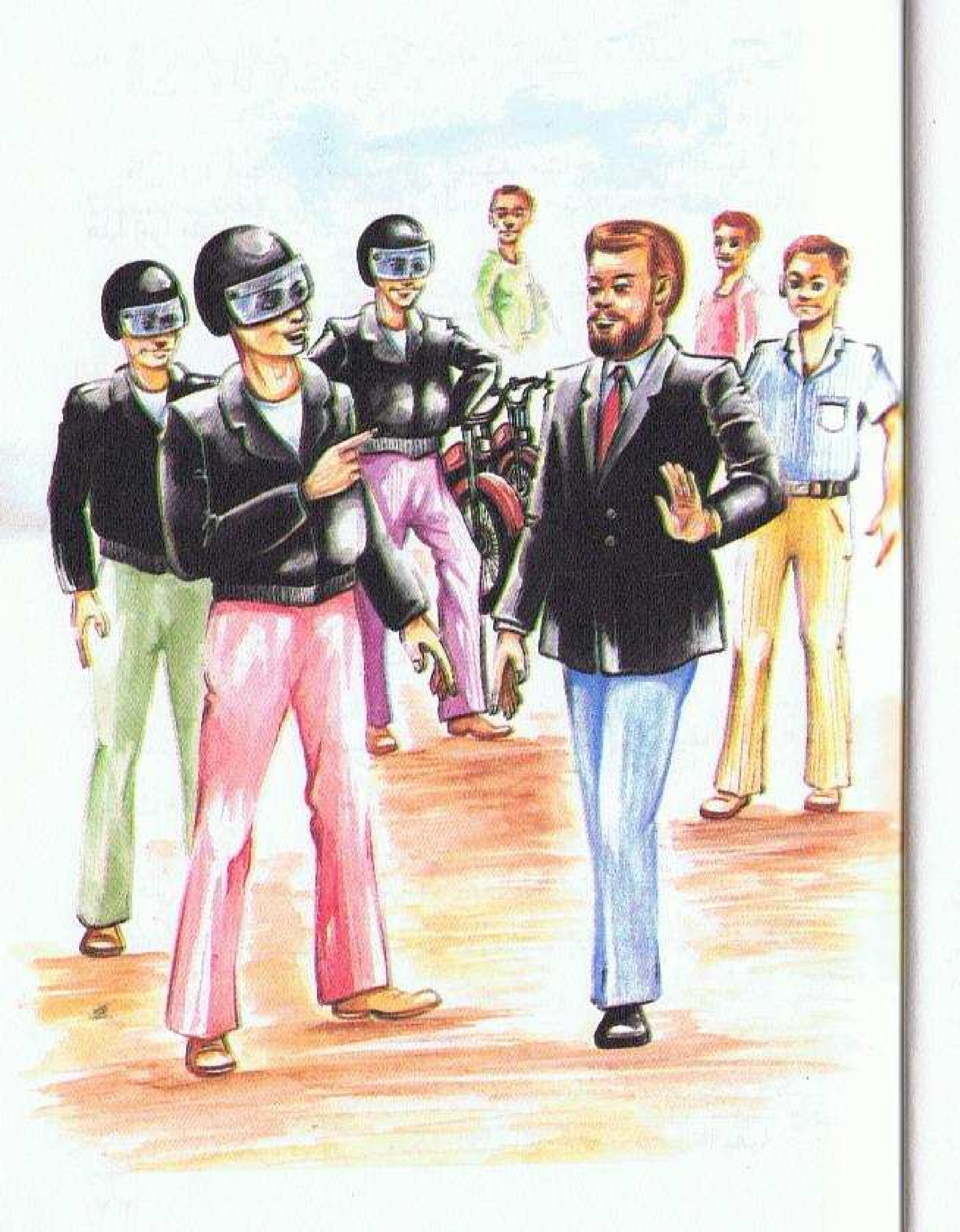
وَذَهَبْتُ إلى مَكْتَبِ شُئونِ الطَّلَبَةِ بِالكُلِّيَّةِ لأطَّلِعَ عَلى مَلَفِّهِ ، فَفوجِئْتُ بِأنَّ لين الَّذي لَمْ يَتَحَدَّثْ مَعي قَطُّ بِلَهْجَةِ أهالي كَمْبِرِدْج هُوَ بِالفِعْلِ مِنْ أبْناءِ كَمْبِرِدْج ! وَيُقيمُ بِالبَلْدَةِ ، وَلكِنْ في حَيٍّ آخَرَ غَيْرِ الحَيِّ الَّذي يَقْطُنُهُ الطُّلابُ ، كَما أنَّ أباهُ لَمْ يَكُنْ **جامِعِيًّا** ، بَلْ كانَ مُجَرَّدَ عامِلِ نَظافَةٍ . فَتَوَجَّهْتُ إلى حَيْثُ يَسْكُنُ لين فَوَجَدْتُ بَيْتَهُ صَغيراً وَقَديماً وَفي حالَةٍ يُرْثى لَها ، كَما كانَ خاوِياً . وَبِحَديثي

مَعَ بَعْضِ الجيرانِ عَلِمْتُ أنَّ والِدَ لين كانَ مُدْمِناً على الشَّرابِ مِمّا جَعَلَ أهْلَ الحَيِّ يَتَجَنَّبونَهُ ، كَما كانَ **فَظًّا** قاسِياً عَلى زَوْجَتِهِ وَأوْلادِهِ، الأمْرُ الَّذي أدّى إلى وَفاةِ زَوْجَتِهِ حُزْناً وَكَمَداً ، وَماتَ الأبُ أيْضاً بِسَبَبِ إفْراطِهِ في الشَّرابِ .

وَقُلْتُ في نَفْسي : « إذاً ، هَذا هُوَ سِرُّ لين ؛ فَوالِدُهُ لَمْ يَعْرِفِ الشِّعْرَ بَيْنَما هُوَ – وَلَوْ أنَّهُ مِنْ أبْناءِ البَلْدَةِ – تَعَلَّمَ حُبَّ الكُتُبِ وَالشِّعْرِ وَكُلِّ ماهُوَ جَميلٌ . ثُمَّ عُدْتُ وَتَساءَلْتُ : « وَلكِنْ لِماذا يَكْرَهُ أبْناءَ بَلْدَتِهِ ؟» وَالإجابَةُ عَنْ ذَلِكَ أنَّهُ يَعْتَبِرُ بَلْدَتَهُ سِجْناً ، وَيَكْرَهُ كَوْنَهُ سَجيناً بِها .

وَفي صَبيحَةِ اليَوْمِ التّالي ذَهَبْتُ إلى الكُلِّيَّةِ لِمُقابَلَةِ لين ، فَعَلِمْتُ أنَّهُ لَيْسَ في جَدْوَلِهِ مُحاضَرَةٌ في ذَلِكَ الصَّباحِ ، وَسَألْتُ أحَدَ الطَّلَبَةِ مِنْ زُمَلائِهِ إنْ كانَ يَعْرِفُ مَكانَهُ ، فَهَزَّ رَأسَهُ قائِلاً : « لا أعْرِفُ ياسَيِّدي .» وَلَكِنَّ شَيْئاً غَريباً في صَوْتِهِ جَعَلَني أقولُ لَهُ بِحِدَّةٍ : « اسْمَعْ ! إنَّ مارْتِن لين في وَرْطَةٍ ، فَإذا زادَ تَوَرُّطُهُ فَسَوْفَ يُفْصَلُ مِنَ الجامِعَةِ ، وَأنا أحاوِلُ مُساعَدَتَهُ ؛ فَأيْنَ هُوَ ؟»

وَبَعْدَ أنْ تَرَدَّدَ الطّالِبُ طَويلاً أخْبَرَني بِأنَّ لين قَدْ ذَهَبَ إلى النَّهْرِ الواقِعِ خارِجَ كَمْبِرِدْج لِيُواجِهَ تَحَدِّياً تَلَقّاهُ مِنْ زَعيمِ عِصابَةِ مَلائِكَةِ



جَهَنَّم ، حَيْثُ سيَكونُ النِّزالُ هَذهِ المَرَّةَ بينَ الرَّجُلَيْنِ فقَطْ ، زَعيماً ضِدَّ زَعيم . وَبَعْدَ أنْ وَصَفَ لِيَ المكانَ بِدِقَّةٍ أسْرَعْتُ إلى سيَّارَتي ، وَمَضَيْتُ إلى المَكانِ الَّذي حَدَّدَهُ الطّالِبُ ، ثُمَّ نزَلْتُ مِنها وَمَشَيْتُ عَبْرَ بَعْضِ الحُقولِ حَتّى بَلَغْتُ ضَفَّةَ النَّهْرِ ، فَوَجَدْتُ هُناكَ أكْثَرَ مِنْ خَمْسينَ شاباً نِصْفُهُمْ مِنَ الطَّلَبَةِ ، وَأمامَهُمْ مَلائِكَةُ جَهَنَّم يَتَوَسَّطونَ مَجْموعَةً مِنْ أبْناءِ البَلْدَةِ ، وَكانوا يَرْتَدونَ مَلابِسَ جِلْدِيَّةً سَوْداءَ ، وَتُغَطّي رُؤوسَهُمْ خُوذاتٌ مَعْدِنِيَّةٌ ، وَقَدْ نَحَّوْا دَرّاجاتِهِمُ البُخارِيَّةَ جانِباً .

وَعِنْدَما رَآني الطُّلابُ هَمّوا بِمُغادَرَةِ المَكانِ فَنادَيْتُهُمْ قائِلاً : « لَنْ أُسَجِّلَ أسْماءَكُمْ ، إنَّما جِئْتُ لأُراقِبَ المَوْقِفَ فَقَطْ . »

وَأجَلْتُ بَصَري بَيْنَ الجَميعِ فَلَمْ أَلْمَحْ لين بَيْنَهُمْ ، فَصِحْتُ مُتَسائِلاً : « أعْلَمُ أنَّ شِجاراً سَيَنْشَبُ الآنَ . مَنِ المُتَقاتِلونَ يا تُرى ؟ » فَتَقَدَّمَ مِنْ بَيْنِ مَلائِكَةِ جَهَنَّم شابٌّ يَرْتَدي مَلابِسَ جِلْدِيَّةً وَخُوذَةً سَوْداءَ ذاتَ قِناعٍ لايَظْهَرُ مِنْهُ سِوى عَيْنَيْهِ ، وَصاحَ لِكَيْ يُسْمِعَ الآخَرينَ : « إنَّني واحِدٌ مِنْهُمْ . أيْنَ الآخَرُ ؟ لَعَلَّهُ لَنْ يَظْهَرَ أبَداً ! »

وَكانَ يَتَحَدَّثُ بِلَهْجَةِ أبْناءِ البَلْدَةِ ، وَقَدْ لاحَظْتُ في نَبْرَتِهِ رَنَّةَ فَخْرٍ وَكِبْرِياءَ ، إذْ بادَرَني قائِلاً : « مَنْ أنْتَ ؟ »

قُلْتُ : « أنا الأسْتاذُ ريد .»

قالَ : « أسْتاذٌ جامِعِيٌّ يَأتي لِيَشْهَدَ مُشاجَرَةً بيْنَ الصِّبْيَةِ ! أ لَيْس هَذا أمْراً مُثيراً حَقًّا ؟!»

وَتعالَتْ صَيْحاتُ مَلائِكَةِ جَهَنَّمَ .

وَتابَعَ زَعيمُ العِصابَةِ حَديثَهُ قائِلاً : « لَنْ يَحْدُثَ شِجارٌ ، لأنَّ الطَّلَبَةَ لايَقْدِرونَ على مُلاقاتِنا رَجُلاً لِرَجُلٍ . إنَّهُمْ لايُجيدونَ سِوى قِراءَةِ الكُتُبِ ، وَلاقُدْرَةَ لَدَيْهِمْ عَلى المَعارِكِ وَالقِتالِ وَمُواجَهَةِ الحَياةِ الحَقيقيَّةِ ؛ أَلَيْسَ كَذلِكَ ؟»

وَتعالَتْ صَيْحاتُ مَلائِكَةِ جَهَنَّمَ ثانيةً .

قُلْتُ لَهُ : « أ تَقْصِدُ أنَّ الإنسانَ لايَعيشُ إلا لِيُقاتِلَ ؟ أ تُؤْمِنُ بِذَلِكَ حَقًّا ؟»

قالَ : « أجَلْ ؛ فَإنَّ جَميعَ الكائِناتِ الحَيَّةِ تُقاتِلُ ، وَالَّذي لايُقاتِلُ لا مَكانَ لَهُ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ . إذا أَرَدْتَ الحَياةَ فَلابُدَّ لَكَ مِنْ أنْ تُقاتِلَ !»

وَكانَ يَتَحَدَّثُ مَعي بِلَهْجَةٍ رَديئَةٍ كَمَنْ لَمْ يَلْتَحِقْ يَوْماً بِأَيَّةِ كُلِّيَّةٍ، وَرُبَّما كانَ يَكْرَهُ الشِّعْرَ ، وَلَكِنَّ كَلِماتِهِ كانَتْ شِعْراً حَقيقِيًّا .

قُلْتُ : « لِماذا لا نَنْصَرِفُ مادام لَنْ يَكونَ هُناكَ شِجارٌ ؟ فَقَدْ يُباغِتُنا رِجالُ الشُّرْطَةِ بيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخرى !»

وَتَقَدَّمَ زَعيمُ العِصابَةِ نَحْوي خُطْوَةً وَقالَ : « هَلْ أَبْلَغْتَ الشُّرْطَةَ ؟»

قُلْتُ : « لا ، وَلكِنَّهُمْ – وَلاشَكَّ – سَيَكْتَشِفونَ الأَمْرَ حالاً .»

هَزَّ رَأسَهُ ، وَاسْتَدارَ نَحْوَ رِجالِهِ وَقالَ لَهُمْ : « حَسَنٌ أَيُّها الرِّفاقُ إذا لَمْ تَسْتَطِعِ النَّصْرَ بِالقِتالِ فَمِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تَنْتَصِرَ دونَ قِتالٍ . فَلْنَذْهَبْ جَميعاً .» وَقَفَزَ إلى دَرّاجَتِهِ البُخارِيَّةِ الضَّخْمَةِ ، وَقَرَّرْتُ أَنْ أَذْهَبَ مَعَهُ ؛ فَتَقَدَّمْتُ مِنْهُ قائِلاً : « لَقَدْ جِئْتُ إلى هُنا سائِرًا عَلى قَدَمَيَّ ، فَهَلْ تُوَصِّلُني إلى البَلْدَةِ عَلى دَرّاجَتِكَ ؟»

وَلَمْ أَكُنْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَرى مِنْ وَجْهِهِ سِوى عَيْنَيْهِ ، وَخُيِّلَ إلَيَّ أَنّي رَأَيْتُ ابْتِسامَةً تُطِلُّ مِنْهُما .

قالَ : « سَيَكونُ ذَلِكَ مِنْ دَواعي سُروري حَقًّا يا أُسْتاذُ .»

وَرَكِبْتُ خَلْفَهُ ، وَلَمّا أَدارَ المُحَرِّكَ هَدَرَتِ الدَّرّاجَةُ وَوَثَبَتْ إلى الأَمامِ فَكِدْتُ أَسْقُطُ ، وَلَكِنَّها كانَتِ البِدايَةَ فَقَطْ ، فَقَدِ انْطَلَقَ كالمَجْنونِ ، وَلاشَكَّ أَنَّهُ كانَ يُريدُ إخافَتي ، وَقَدْ نَجَحَ في ذَلِكَ تَماماً. وَمَضى يَشُقُّ طَريقَهُ هابِطاً الطُّرُقَ الضَّيِّقَةَ بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ ، حَتّى



أوْشكْتُ أنْ ألامِسَ الأرْضَ عِنْدَ المُنْعطَفاتِ . وكانَ يَمُرُّ بِالسَّيّاراتِ كَالقَذيفَةِ، وَعبَرَ جِسْرًا فكِدْنا نَطيرُ عَنْ مَقْعَدَيْنا ، وَهَبَطْنا إلى الشّارِعِ الرَّئيسيِّ بِسُرْعَةٍ جاوزَتِ المِئَةَ وَالخَمْسينَ كيلو مِترًا في السّاعَةِ، فَمِلْتُ نَحْوَهُ وهَمَسْتُ في أذُنِهِ :

« بُعْدًا لكَ ، بُعْدًا لكَ ، أيُّها المَوْتُ !»

كانَ هذا بَيْتًا مِنَ الشِّعْرِ لِشكْسبير ، لكِنَّ زَعيمَ ملائِكَةِ جهَنَّمَ لَمْ يُجِبْني بِشَيْءٍ ، وَكَيْفَ يُجيبُ وَهُوَ مِنْ أبْناءِ البَلْدَةِ الَّذينَ لايَعْرِفونَ شِكْسْبير ، وَلا يَعْني لهُمْ شِعْرُهُ شيئًا ! لكِنَّني مِلْتُ عَلَيْهِ ثانِيَةً وَقُلْتُ :

« بُعْدًا لكَ ، بُعْدًا لكَ ، أيُّها المَوْتُ !»

وَكانَتِ الرِّيحُ تَعْصِفُ بِنا وَنَحْنُ نَمْضي مُسْرِعَيْنِ ، كَما كانَتْ خُوذَتُهُ تُغطّي أذُنَيْهِ ، وَخُيِّلَ إليَّ أنَّهُ كانَ يَضْحَكُ ، فَمِلْتُ عَلَيْهِ لِلْمَرَّةِ الثّالِثَةِ وَصِحْتُ في أذُنِهِ :

« بُعْدًا لكَ ، بُعْدًا لكَ ، أيُّها المَوْتُ !»

فَرفَعَ هُوَ أيْضًا صَوْتَهُ ، وَصاحَ مِثْلي :

« تَلاشَيْ ، تَلاشَيْ ، أيَّتُها الحَياةُ !»

وَكانَ هَذا ما أريدُ سَماعَهُ مِنْهُ ، لَقَدْ عَرَفَ الشَّطْرَ الآخَرَ ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّ هَذا البَيْتَ مِنَ الشِّعْرِ لَيْسَ مِنَ الأبْياتِ الشّائِعَةِ ، فَكَيْفَ عَرَفَهُ ابنُ البَلْدَةِ ؟!

وَمِلْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ بِصَوْتٍ عالٍ :

« أوْقِفِ الدَّرّاجَةَ يا مارْتِن لين .»

لَمْ يَقِفْ ، وَلَكِنَّهُ خَفَّفَ مِنْ سُرْعَتِهِ ، وَأصْبَحَ بِمَقْدورِنا أنْ نَتَحَدَّثَ ، فَسألَني : « كَيْفَ عَرَفْتَني ؟»

قُلْتُ : « في البِدايَةِ لَمْ أكُنْ واثِقًا ، وَلَكِنَّني أعْرِفُ الكَثيرَ عَن

اللّهَجاتِ ؛ فَهذا هُوَ مَجالُ دِراسَتي ، وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّني سَأَكْتَشِفُ شَيْئًا مِنْ هذا القَبيلِ . لَقَدْ بَدَّلْتَ لَهْجَتَكَ وَلكِنَّ شَيْئًا ما في صَوْتِكَ ، وَالطَّريقَةِ الّتي تَرْفَعُ بِها رَأْسَكَ لَمْ تَتَغَيَّرْ . إِنَّكَ مارْتن لين الطّالِبُ ، وَفي الوَقْتِ نَفْسِهِ واحِدٌ مِنْ ملائِكَةِ جَهَنَّمَ ، إِنَّكَ الاثْنانِ مَعًا ! وَلكِنْ لِماذا تَفْعَلُ ذلِكَ ؟ »

قالَ : « نَعَمْ ، أنا هُما مَعًا ، طالِبٌ مُتَميِّزٌ وَواحِدٌ مِنْ ملائِكَةِ جَهَنَّمَ ، وَعَلَيَّ أَنْ أَكونَهُما مَعًا . »

قُلْتُ : « في النِّهايَةِ لابُدَّ وَأَنْ يَنْكَشِفَ أَمْرُكَ . »

قالَ : « أَعْلَمُ ذلِكَ ، وَلكِنّي لا أُبالي ، فَأَنا بِحاجَةٍ إِلى هذا الشُّعورِ بِالخَطَرِ . إِنَّني بِحاجَةٍ إِلى أَنْ أَكونَ جاسوسًا ، وَ لَسْتُ في الواقِعِ مَعَ جانِبٍ دونَ آخَرَ ، إِنَّما أَنا عَدُوٌّ لِنَفْسي ، لِذا قَرَّرْتُ أَنْ أَكونَ جاسوسًا . »

قُلْتُ : « هَلْ تَعْلَمُ أَنَّهُ يَتَحَتَّمُ عَلَيَّ أَنْ أُبَلِّغَ عَنْكَ ؟ »

قالَ : « أَجَلْ ، لَكَ أَنْ تَفْعَلَ ذلِكَ ، فَلَنْ أَسْتَمِرَّ في كِمبرِدْج بَعْدَ الآنَ ، سَوْفَ أُنْزِلُكَ في البَلْدَةِ ، ثُمَّ أُتابِعُ طَريقي . »

قُلْتُ : « إِلى أَيْنَ ؟ »



قالَ : « إِلى أَيِّ مَكانٍ . إِنَّ العالَمَ بِحاجَةٍ إِلى جَواسيسَ ، وَأَعْتَقِدُ أَنّي جاسوسٌ ماهِرٌ ، وَمِنْ نَوْعٍ مُتَميِّزٍ ، وَسَأَجِدُ لي مَكانًا ، وَسَأَجِدُ الخَطَرَ الّذي أَحْتاجُ إِلَيْهِ . »

وَتَوَقَّفَ عِنْدَ وَسَطِ المَدينَةِ ، فَنَزَلْتُ وَقُلْتُ لَهُ : « تَسْتَطيعُ أَنْ تَحْضُرَ لِتَأْخُذَ أَشْياءَكَ ، وَثِقْ بِأَنَّني لَنْ أُبَلِّغَ عَنْكَ قَبْلَ ذلِكَ . »

أَطَلَّتِ ابْتِسامَةٌ مِنْ عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ رَبَّتَ عَلى دَرّاجَتِهِ البُخارِيَّةِ الضَّخْمَةِ وَقالَ : « هذِهِ هِيَ كُلُّ أَشْيائي ، إِنَّها كُلُّ ما أَمْلِكُ . وَداعًا أَيُّها

الأسْتاذُ . لَنْ أثيرَ شَغَباً في كِمبرِدْج بَعْدَ اليَوْم .»

وَ هدَرَ المُحرِّكُ ، وَانْطَلَقَ الشَّخْصُ الَّذي يَحْمِلُ بَيْنَ جَنْبيْهِ عاشِقاً لِلشِّعْرِ وَملاكاً جهَنَّمِياً ، وَرَحَلَ عَنِ البَلْدَةِ . كانَ ذَلِكَ مُنْذُ عامَيْن كَما ذَكَرْتُ ، وَلَمْ أَسْمَعْ عَنْهُ شيْئاً مُنْذُ ذَلِكَ الحينِ .

وَهكَذا ، يا عَزيزي بِل ، لَمْ يُدْهِشْني كَثيراً ماسَمِعْتُهُ مِنْ أنْباءٍ عَنِ الضّابِطِ الشّابِّ في كَتيبَتِكَ ، الَّذي كانَ يَبْذُلُ قُصارى جَهْدِهِ كَيْ يَقومَ بِعَمَلِهِ بِوَصْفِهِ ضابِطاً ، إنَّهُ مِثْلُ مارْتِن لين لَمْ يَكُنْ طالِباً فَقَطْ كَما لَمْ يَكُنْ جاسوساً فَقَطْ ، لَقَدْ كانَ رَجُلَيْنِ في ثَوْبٍ واحِدٍ ، تَماماً كَضابِطِكَ الَّذي كانَ يَعْمَلُ ضابِطاً لَدَيْكَ وَضابِطاً لَدى الطَّرَفِ الآخَرِ في الوَقْتِ نَفْسِهِ ، فَكَيْفَ كانَ في مَقْدورِكَ أنْ تَعلَمَ ؟

نَحْنُ جَميعاً بِخَيْرٍ ، وَسَوْفَ يَكونُ مِنْ دَواعي سُرورِنا حَقّاً أنْ تُمْضِيَ مَعَنا الأسْبوعَ القادِمَ .

تَحِيّاتُنا القَلْبِيَّةُ لَكَ .

أخوك المحب

غرايام

شارِبُ اللَّبَن

كُلِّيَّةُ القِدّيس جود

كِمْبرِدْج في ٢١ أكتوبر (تَشْرين الأوَّل)

عزيزي بل ،

وَقَعَ عِنْدَنا حادِثٌ مُؤْسِفٌ في كِمبرِدْج بَعْدَ أنْ غادَرْتَنا بِثَلاثَةِ أسابيع . هَلْ تَذْكُرُ الأسْتاذَ وِكسفورْد ، الأسْتاذَ الجامِعِيَّ الطَّيِّب ؟ إنَّهُ أطْيَبُ مَنْ عَرَفْتُ في حَياتي ، وَلا أعْتَقِدُ أنَّكَ تَعْرِفُهُ مَعْرِفَةً جَيِّدَةً ، وَإنْ كُنْتُ أذْكُرُ أنَّنا خَرَجْنا نَحْنُ الثَّلاثَةَ لِلنُّزْهَةِ ذات مَرَّةٍ ، وَلَعَلَّكَ أيْضاً تكونُ قَدْ قابَلْتَهُ عِنْدي مَرَّةً أوْ مَرَّتَيْن .

لَقَدْ رَأيْتُ أنْ أتَحَدَّثَ إلَيْكَ بِشَأنِ ما حَدَثَ يا بِل ، و أرْجو أنْ تَعْذِرَني في اضْطِرابِ أسْلوبي في الكِتابَةِ ؛ لأنَّ حُزْني عَلى أسْتاذي يَمْلِكُ عَلَيَّ كُلَّ مَشاعِري .

مَعْذِرَةً يا بِل ؛ إذْ كانَ عَلَيَّ أنْ أقولَ لَكَ من البِدايَةِ إنَّ زِيارَتَكَ قَدْ أسْعَدَتْنا جَميعاً حَتَّى إنَّ الصَّغيرَ بِل بَكى حُزْناً عَلى رَحيلِكَ ، وَكَذلِكَ كانَتْ ديزي وَالأوْلادُ في غايَةِ الأسَفِ لِفِراقِكَ ! وَلَكِنَّ واجِبَكَ كَرَجُلٍ عَسْكَرِيٍّ حَتَّمَ عَلَيْكَ أنْ تُغادِرَنا إلى عَمَلِكَ ، وَإنْ كُنّا نَتَمَنّى أنْ تُقيمَ مَعَنا دائِماً في كِمْبِرْدْج . وَالآنَ أشْعُرُ بِرَغْبَةٍ في أنْ أُحَدِّثَكَ عَمّا حَدَثَ لِلأُسْتاذِ وِكسْفورْد :

ذَهَبْنا بِالسَّيّارَةِ ذاتَ يَوْمٍ مِنْ أيّامِ السَّبْتِ أنا وديزي وَالأوْلادُ خارِجَ المَدينَةِ لِتَناوُلِ طَعامِ الغَداءِ في مَطْعَمٍ أعْرِفُهُ ، يَقَعُ عَلى بُعْدِ ثَلاثين كيلومِتْراً مِنْ كِمْبِرْدْج . وَبَعْدَ أنْ تَناوَلْنا أكْلَةً شَهِيَّةً ، وَتَمَتَّعْنا بِالنُّزْهَةِ في الرّيفِ ، تَوَجَّهْنا إلى المَنْزِلِ ، وَبَيْنَما نَحْنُ نَعْبُرُ إحْدى القُرى طَلَبَتِ الصَّغيرَةُ لُويز شَيْئاً مِنْ عَصيرِ الفاكِهَةِ ، فَلَمَحْتُ مَتْجَراً صَغيراً مِنْ ذَلِكَ النَّوْعِ الَّذي يوجَدُ عادَةً في القُرى ؛ حَيْثُ يُباعُ كُلُّ شَيْءٍ تَقْريباً ، فَذَهَبْتُ لأُحْضِرَ العَصيرَ ، وَلَمْ أكَدْ أصِلُ إلى المَتْجَرِ حَتّى وَجَدْتُ رَجُلاً نَحيلاً طاعِناً في السِّنِّ يَخْرُجُ مِنْهُ ، وَكانَ يَرْتَدي ثِياباً قَديمَةً كَثِيابِ القَرَوِيّينَ الفُقَراءِ ؛ فَخِلْتُهُ واحِداً مِنْهُمْ . لَمْ يَلْفِتْ نَظَري مَظْهَرُ الرَّجُلِ في حَدِّ ذاتِهِ ، وَلَكِنَّ الَّذي لَفَتَ نَظَري هُوَ عَدَدُ زُجاجاتِ اللَّبَنِ الَّتي كانَ يَحْمِلُها ، فَقَدْ وَضَعَ في كُلِّ جَيْبٍ مِنْ جَيْبَيْ مِعْطَفِهِ زُجاجَتَيْنِ ، وَ وَضَعَ تَحْتَ كُلِّ إبِطٍ مِنْ إبِطَيْهِ

زُجاجَتَيْنِ ، وَأمْسَكَ بِكُلِّ يَدٍ مِنْ يَدَيْهِ زُجاجَةً ؛ فَأصْبَحَ مَجْموعُ الزُّجاجاتِ عَشْراً ! إنَّهُ أمْرٌ غَريبٌ حَقّاً ! وَكانَ الرَّجُلُ يَهْتَزُّ في مِشْيَتِهِ وَهُوَ يُمْسِكُ بِزُجاجاتِهِ بِإحْكام ؛ خَشْيَةَ أنْ تَسْقُطَ . وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدِ ابْتَعَدَ سِوى خُطُواتٍ قَليلَةٍ حَتّى سَقَطَتِ الزُّجاجَتانِ مِنْ تَحْتِ إبِطِهِ الأيْسَرِ ، فَانْكَسَرَتْ إحْداهُما وَانْسَكَبَ مِنْها اللَّبَنُ عَلى الأرْضِ ، وَتَدَحْرَجَتِ الأُخْرى عَلى أرْضِ الشّارِعِ مُبْتَعِدَةً عَنْهُ ، فَأسْرَعَ الرَّجُلُ يَجْري وَراءَها ، وَمالَ عَلَيْها مُحاوِلاً الْتِقاطَها فَسَقَطَ، وَسَقَطَتِ الزُّجاجَتانِ اللَّتانِ كانَتا تَحْتَ إبْطِهِ الأيْمَنِ ، وَتَدَحْرَجَتا بَعيداً ، لَكِنَّهُما لَمْ تَنْكَسِرا ، فَأسْرَعْتُ إلى مُساعَدَتِهِ قائِلاً : « هَلْ أنْتَ بِخَيْرٍ يا سَيِّدي ؟»

فَلَمّا رَفَعَ نَظَرَهُ نَحْوي أصابَتْني دَهْشَةٌ بالِغَةٌ ؛ فَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ سِوى الأُسْتاذِ وِكسْفورْد . لَشَدَّ ما تَغَيَّرَ الرَّجُلُ !

لَمْ أكُنْ قَدْ رَأيْتُهُ مُنْذُ ثَلاثَةِ أعْوامٍ ، وَكانَ قَدْ تَقاعَدَ وَتَرَكَ العَمَلَ في الجامِعَةِ ، وَكانَ حينَذاكَ رَجُلاً مَهيباً قَوِيّاً ، أمّا مَنْ رَأيْتُهُ أمامي فَناحِلُ الجَسَدِ ، أشْيَبُ الشَّعْرِ أشْعَثُهُ ، شاحِبُ الوَجْهِ ، لَكِنَّ عَيْنَيْهِ كانَتا بَرّاقَتَيْنِ أكْثَرَ مِمّا يَنْبَغي ؛ فَقَدْ كانَ مَريضاً وَلا شَكَّ !

قالَ : « ماذا تَقولُ ؟ زُجاجاتُ اللَّبَنِ ! إلَيَّ بِزُجاجاتِ اللَّبَنِ !»

قُلْتُ : « هَلْ أَنْتَ عَلى ما يُرامُ يا أُسْتاذُ وِكسفورْد ؟ أنا غرايام ريد ، هَلْ تَذْكُرُني ؟»

نظَرَ إليَّ مليًّا ، وَلَمْ يَعْرِفْني . كانَ أشْبَهَ بِرَجُلٍ يُحاوِلُ أنْ يرى مِنْ خِلالِ غَمامَةٍ ، وأخيراً قالَ : « لا .»

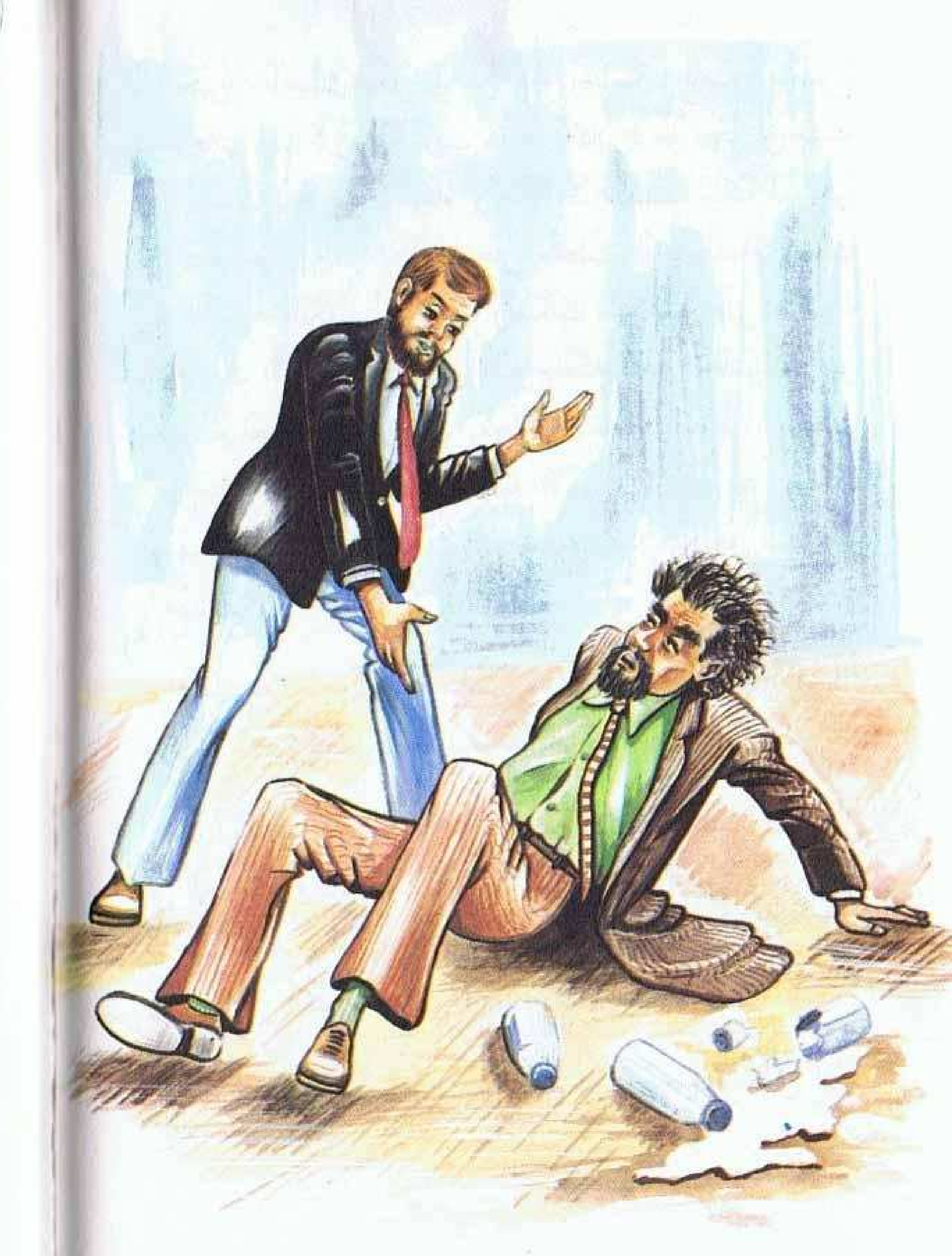
قُلْتُ : « كَيْفَ لا تعْرِفُني ، وَقَدْ كُنْتُ واحِداً مِنْ طُلابِكَ ، وَعِنْدَما أصْبَحْتُ أسْتاذاً صِرْنا أصْدِقاءَ ؟! إنَّني غرايام ريد .»

تَساءَلَ وَهُوَ يُحاوِلُ أنْ يَتَذَكَّرَ : « ريد ... ريد .» ثُمَّ هَزَّ رَأسَهُ بِبُطءٍ وَقالَ : « آهٍ ، نَعَمْ ، ريد . كَيْفَ حالُكَ يا ريد ؟»

وَمَدَّ يَدَهُ بِسُرْعَةٍ إلى زُجاجاتِ اللَّبَنِ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الوُصولَ إلَيْها . وَهَزَّني أنْ أرى دُموعاً تَتَرَقْرَقُ في عَيْنَيْهِ ، وَصاحَ كَما يَصيحُ صَبِيٌّ صَغيرٌ : « لَبَني ، إليَّ بِهِ أرْجوكُمْ .»

أسْرَعْتُ وَجَمَعْتُ لَهُ الزُّجاجاتِ ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : « أرى أنَّكَ لَسْتَ عَلى ما يُرامُ يا سَيِّدي ، وَمِنَ الأفْضَلِ أنْ أصْحَبَكَ إلى المُسْتَشْفى .»

اِرْتَسَمَتْ عَلى وَجْهِهِ نَظْرَةُ خَوْفٍ عِنْدَ سَماعِهِ كَلِمَةَ مُسْتَشْفى ، وَحاوَلَ النُّهوضَ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ .



قالَ : « لا .. لا ، لَسْتُ مَريضاً ، رُبَّما أكونُ ضَعيفاً لِعَدَمِ اسْتِطاعَتي الحُصولَ عَلى لَبَنٍ . أعِنّي عَلى النُّهوضِ يا ريد .»

وَحاوَلْتُ أنْ أتَكَلَّمَ ، لَكِنَّهُ قاطَعَني مُكَرِّراً بِصَوْتٍ واهِنٍ : « أعِنّي عَلى النُّهوضِ يا ريد .»

فَلَمّا أعَنْتُهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الوُقوفَ بِثَباتٍ ، وَإنْ لَمْ يَسْقُطْ ثانِيَةً ، وَقالَ: « أعْطِني لَبَني الآنَ .»

قُلْتُ : « إنَّ سَيّارَتي مَعي ، فَاسْمَحْ لي أنْ أوَصِّلَكَ إلى مَنْزِلِكَ.»

قالَ : « لا . مَنْزِلي قَريبٌ ، وَأنا بِخَيْرٍ الآنَ . أعْطِني الزُّجاجاتِ أرْجوكَ ؟» وَكانَ بادِيَ الغَضَبِ ، فَأعَدْتُ اللَّبَنَ إلى مَكانِهِ تَحْتَ إبِطَيْهِ .

وَأدْرَكَ أنَّهُ كانَ فَظًّا مَعي ، فَاعْتَذَرَ قائِلاً : « مَعْذِرَةً يا ريد . إنَّني آسِفٌ إذْ كُنْتُ فَظًّا مَعَكَ ، لَكِنَّ إضْرابَ بائِعي اللَّبَنِ عَنْ تَوْصيلِهِ إلى المَنازِلِ أمْرٌ مُزْعِجٌ حَقًّا . سَوْفَ أكونُ بِخَيْرٍ ، شُكْراً لَكَ .» ثُمَّ مَضى مُبْتَعِداً بِخُطًى قَصيرَةٍ واهِنَةٍ ، وَهُوَ يَتَرَنَّحُ في مِشْيَتِهِ يَميناً وَيَساراً. وَراقَبْتُهُ وَهُوَ يَبْتَعِدُ شَيْئاً فَشَيْئاً .

وَنَظَرْتُ فَوَجَدْتُ زَوْجَتي واقِفَةً بِجِواري ، فَسَألَتْني : « مَنْ كانَ

ذَلِكَ الرَّجُلُ ؟» فَلَمّا أخْبَرْتُها عَنْهُ قالَتْ : « وَلِماذا يُريدُ كُلَّ هَذا اللَّبَنِ ؟»

قُلْتُ : « أظُنُّ أنَّهُ لا يَتَناوَلُ طَعاماً سِواهُ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ .»

وَعِنْدَما دَخَلْتُ المَتْجَرَ لأشْتَرِيَ لابْنَتي لُويز زُجاجَةَ العَصيرِ ، سَألْتُ صاحِبَ المَتْجَرِ : « هَلْ تَعْرِفُ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذي اشْتَرى مِنْكَ كُلَّ ذَلِكَ اللَّبَنِ ؟»

هَزَّ الرَّجُلُ رَأْسَهُ وَقالَ : « إنَّهُ أسْتاذٌ جامِعِيٌّ يَسْكُنُ هُنا مُنْذُ ثَلاثَةِ أعْوامٍ ، وَنادِراً ما نَراهُ . وَعِنْدَما طَلَبَ شِراءَ زُجاجاتٍ مِنَ اللَّبَنِ ، عَرَضْتُ عَلَيْهِ أنْ أضَعَها في أكْياسٍ ، وَيَبْدو أنَّهُ لَمْ يَسْمَعْني ، وَوَضَعَ الزُّجاجاتِ في جَيْبَيْ مِعْطَفِهِ وَتَحْتَ إبِطَيْهِ ، وَلَعَلَّهُ كانَ مَشْغولَ الفِكْرِ بِأمورٍ أخْرى ، هَذا ما كانَ يَبْدو عَلَيْهِ .»

وَلَمّا سَألْتُهُ عَنِ الإضْرابِ أجابَ : « أجَلْ ، لَقَدْ أضْرَبَ مُوَزِّعو اللَّبَنِ عَنْ تَسْليمِهِ إلى النّاسِ في مَنازِلِهِمْ .»

وَبَعْدَ عَوْدَتِنا إلى كِمْبِرْدْج ، لَمْ أسْتَطِعْ نِسْيانَ الحالَةِ الرَّهيبَةِ الَّتي كانَ عَلَيْها الأسْتاذُ وِكسفورد .

لَقَدْ كانَ ، يا بِل ، مِنْ خيرَةِ الأساتِذَةِ الَّذينَ عَرَفْتُهُمْ . صَحيح

أنَّ الأساتِذَةَ – في أيّامِنا هٰذِهِ – يَعْرِفونَ كُلَّ يوم المَزيدَ عَنِ المَوْضوعاتِ الَّتي يُدَرِّسونَها ، وَلٰكِنَّهُمْ لا يَعْرِفونَ شَيْئًا يُذْكَرُ عَنِ المَوْضوعاتِ الأُخْرى ، فَإذا كانوا مِنَ المُخْتَصّينَ بِالفُنونِ مَثَلاً فَإنَّ مَعْرِفَتَهُمْ بِالعُلوم تكونُ ضَئيلَةً أوْ مَعْدومَةً ، وَإذا كانوا مِنَ المُخْتَصّينَ بِأحَدِ العُلوم ، فَإنَّهُمْ لا يَعْرِفونَ شَيْئًا عَنِ الفُنونِ ، وَرُبَّما لَمْ يَسْمَعوا عَنْ شكْسبير أوْ موتْسارْت ، وَلَعَلّي أبالِغُ قَليلاً ، وَلٰكِنَّكَ تُدْرِكُ –وَلاشَكَّ– ما أقْصِدُ ، لكِنَّ وِكسْفورْد كانَ مُخْتَلِفًا ، كانَ رَجُلاً عَظيمًا حَقًّا ، تَصَوَّرْ أنَّهُ كانَ أسْتاذًا لِلأدَبِ ، وَفي الوَقْتِ نَفْسِهِ أسْتاذًا لِلْكيمْياءِ الحَيَوِيَّةِ ، وَأنْجَزَ الكَثيرَ في كِلا الحَقْلَيْنِ . فَفي خِلالِ العِشْرينَ سَنَةً الأخيرَةِ مِنْ حَياتِهِ في الجامِعَةِ حاضَرَ في الأدَبِ ، وَقَدْ حَضَرْتُ الكَثيرَ مِنْ مُحاضَراتِهِ الَّتي كانَتْ مِنْ أفْضَلِ ما سَمِعْتُ في حَياتي .

وَحَدَثَ بَعْدَ أنْ رَأيْتُهُ في الرّيفِ أنِ انْشَغَلْتُ أسْبوعًا في تَصْحيحِ أوْراقِ امتِحانٍ خاصٍّ ، وَكانَ أسْبوعًا مِنَ العَمَلِ المُضْني ، وَمَعَ ذٰلِكَ لَمْ أنْسَ وِكسْفورْد . وَفي نِهايَةِ الأسْبوعِ سَألْتُ بَعْضَ مَنْ أعْرِفُهُمْ مِنْ كُلِّيَّتِهِ عَنْهُ ، وَلٰكِنَّ أحَدًا لَمْ يَرَهُ مُنْذُ زَمَنٍ ، وَكُلُّ ما يَعْرِفونَهُ عَنْهُ أنَّهُ يَعيشُ بِمُفْرَدِهِ في بَيْتٍ صَغيرٍ في إحْدى القُرى ، وَأنَّ زَوْجَتَهُ ماتَتْ مُنْذُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً . كُنْتُ أُريدُ مُساعَدَتَهُ لِأنَّهُ لَيْسَ عَلى ما

يُرامُ ، وَلٰكِنَّهُ عَلى أيَّةِ حالٍ لَيْسَ طِفْلاً ، وَقَدْ يَرْفُضُ مُساعَدَتي .

وَذَهَبْتُ ذاتَ مَرَّةٍ لِتَناوُلِ طَعامِ الغَداءِ في مَطْعَمِ الجامِعَةِ مَعَ أسْتاذٍ بِإحْدى الكُلِّيّاتِ ، وَعِنْدَما سَألْتُهُ عَنْهُ أبْدى أسَفَهُ لِأنَّهُ لايَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا ؛ لكِنَّ شابًّا كانَ يَجْلِسُ إلى طاوِلَةٍ قَريبَةٍ مالَ نَحْوَنا قائِلاً : « سَمِعْتُكَ تَسْألُ عَنِ الأسْتاذِ وِكسْفورْد .»

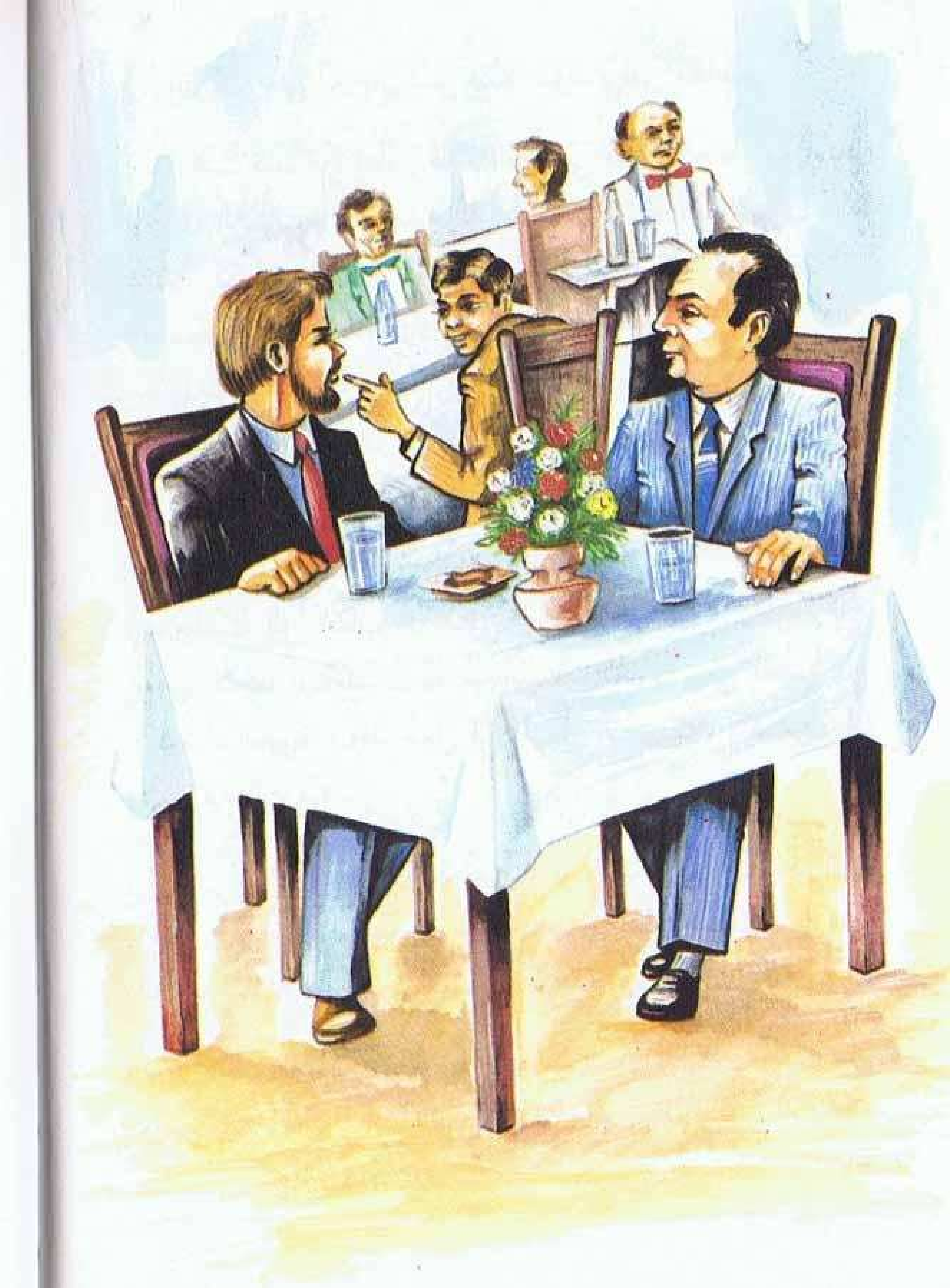
قُلْتُ بِلَهْفَةٍ : « نَعَم ، هَلْ تَعْرِفُهُ ؟»

قالَ : « إلى حَدٍّ ما . لَقَدْ جاءَ مَرَّةً مُنْذُ سَنَةٍ تَقْريبًا إلى مَعْمَلِ الكيمْياءِ الحَيَوِيَّةِ الَّذي نَعْمَلُ فيهِ ، وَقَدْ سَمَحْنا لَهُ بِأنْ يَعْمَلَ هُناكَ .»

وَطَلَبْتُ إلى الشّابِّ أنْ يَنْتَقِلَ إلى طاوِلَتِنا ، وَرُحْتُ أوَجِّهُ إلَيْهِ بَعْضَ الأسْئِلَةِ ، فَعَلِمْتُ أنَّهُ مُحاضِرٌ في العُلومِ ، في أحَدِ فُروعِ الكيمْياءِ الحَيَوِيَّةِ ، وَقَدْ عَمِلَ في المَعْمَلِ الَّذي كانَ وِكسْفورْد قَدْ عَمِلَ فيهِ ذاتَ مَرَّةٍ .

قالَ : « جاءَ إلَيْنا وِكسْفورْد مُنْذُ ما يَقْرُبُ مِنْ عامَيْنِ ، وَأبْدى رَغْبَتَهُ في اسْتِخْدامِ المَعْمَلِ مَعَ اسْتِعْدادِهِ لِدَفْعِ النَّفَقاتِ وَالرُّسومِ اللازِمَةِ لِذَلِكَ ، وَأنَّهُ سَوْفَ يَعْمَلُ فَقَطْ عِنْدَ خُلُوِّهِ مِنَ الباحِثينَ .»

وَأضافَ الشّابُّ : « نَحْنُ عادَةً لانَسْمَحُ بِذَلِكَ ، وَلَمّا كانَ وِكسْفورْد مِنْ كِبارِ أساتِذَتِنا في المَعْمَلِ ، فَقَدْ وافَقْنا لَهُ ، فَاسْتَخْدَمَهُ



مُدَّةَ سَنَةٍ تَقْريباً ، وَلَمْ نَرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ .»

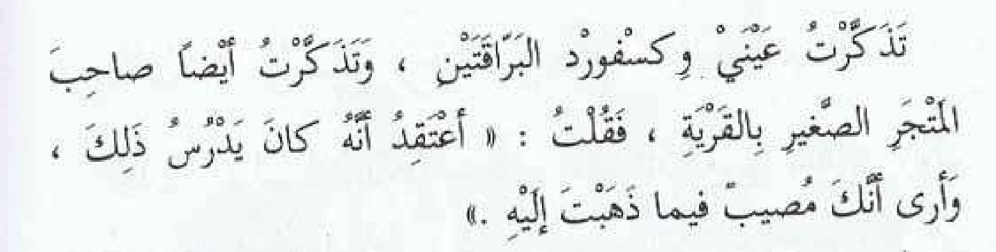
سَأَلْتُ : « هَلْ تَعْرِفُ نَوْعَ العَمَلِ الَّذي كانَ يَقومُ بِهِ ؟»

أجابَ : « لَسْتُ مُتَأَكِّداً تَماماً ؛ فَقَدْ كانَ يَعْمَلُ بِمُفْرَدِهِ ، وَلَمْ يَتَحَدَّثْ مَعَنا في هَذا الأَمْرِ ؛ وَلَكِنّي أَعْتَقِدُ أَنَّهُ كانَ يَدْرُسُ شَيْئاً عَنْ عَقاقيرِ الهَلْوَسَةِ .»

عَقاقيرُ الهَلْوَسَةِ ! إِنَّها تِلْكَ العَقاقيرُ الخَطِرَةُ الَّتي تُؤَثِّرُ عَلى المُخِّ ، فَيَتَخَيَّلُ مُتَعاطيها أَشْياءَ لَيْسَتْ مَوْجودَةً في عالَمِ الواقِعِ ، وَهَذِهِ العَقاقيرُ مَحْظورٌ صُنْعُها أَوْ تَعاطيها في إِنْجِلْتِرا وَفي أَغْلَبِ الدُّوَلِ .

قُلْتُ : « وَما الَّذي يَجْعَلُكَ تَعْتَقِدُ ذَلِكَ ؟» .

أجابَ : « ذاتَ مَرَّةٍ شارَكْتُهُ في تَناوُلِ القَهْوَةِ ، وَجَلَسْنا نَتَحَدَّثُ في أُمورٍ شَتَّى ، وَأَذْكُرُ أَنَّهُ تَحَدَّثَ مَعي عَنْ عَقاقيرِ الهَلْوَسَةِ قائِلاً : « يَجِبُ أَنْ يَصْنَعَ أَحَدُنا نَوْعاً جَديداً تَماماً ، لا يَمُتُّ بِصِلَةٍ إِلى تِلْكَ العَقاقيرِ الَّتي تَجْعَلُ النّاسَ يَرَوْنَ ما لَيْسَ في الواقِعِ ، بَلْ يَكونُ لَهُ تَأْثيرٌ ذو قيمَةٍ حَقيقِيَّةٍ ، وَقُدْرَةٍ فائِقَةٍ عَلى تَنْشيطِ المُخِّ ، وَبِعَقّارٍ مِنْ هَذا القَبيلِ رُبَّما تَخْطِرُ لِلْمَرْءِ أَفْكارٌ عَظيمَةٌ .» وَلَمْ يَدُرْ بَيْنَنا سِوى هَذا الحَديثِ . رُبَّما كانَ الرَّجُلُ يَقومُ بِدِراسَةِ أَشْياءَ أُخْرى مُخْتَلِفَةٍ



تماماً .»

تَذَكَّرتُ عَيْنَيْ وِكسفورْد البَرّاقَتَيْنِ ، وَتَذَكَّرتُ أيْضاً صاحِبَ المَتْجَرِ الصَّغيرِ بِالقَرْيَةِ ، فَقُلْتُ : « أعْتَقِدُ أنَّهُ كانَ يَدْرُسُ ذَلِكَ ، وَأرى أنَّكَ مُصيبٌ فيما ذَهَبْتَ إلَيْهِ .»

وَكانَ اليَوْمُ التّالي يَوْمَ سَبْتٍ ، وَلَمْ تَكُنْ عِنْدي أيَّةُ مُحاضَراتٍ فيهِ ، فَذَهَبْتُ إلى القَرْيَةِ ، وَدَلَّني صاحِبُ المَتْجَرِ عَلى مَنْزِلِ وِكسْفورْد، حَيْثُ يَقَعُ وَسْطَ صَفٍّ مِنَ المَنازِلِ ذاتِ الحَدائِقِ الجَميلَةِ وَالنَّوافِذِ المَفْتوحَةِ ، وَلكِنَّني عِنْدَما بَلَغْتُ مَنْزِلَ وِكسْفورْد وَجَدْتُ حَديقَتَهُ مُهْمَلَةً تَماماً ، وَالحَشائِشَ تَنْمو فيها دونَ رِعايَةٍ ، وَالنَّوافِذَ مُغْلَقَةً .

دَقَقْتُ الجَرَسَ ، وَانْتَظَرْتُ بُرْهَةً ، فَلَمّا لَمْ يُجِبْني أحَدٌ دَقَقْتُهُ ثانِيَةً، وَلَمَحْتُ شَيْئاً يَتَحَرَّكُ خَلْفَ النّافِذَةِ ، وَبَعْدَ لَحَظاتٍ لَمَحْتُ وَجْهَ وِكسْفورْد ، وَانْتَظَرْتُ وَلكِنَّهُ لَمْ يَأتِ إلى البابِ .

وَدَقَقْتُ الجَرَسَ مِراراً ، وَبَعْدَ نَحْوِ خَمْسِ دَقائِقَ فَتَحَ وِكسْفورْد النّافِذَةَ ، وَنَظَرَ إلَيَّ غاضِباً ، وَأشارَ لي أنْ أبْتَعِدَ ، وَلكِنّي ظَلَلْتُ أدُقُّ الجَرَسَ ، وَبَعْدَ دَقائِقَ فَتَحَ البابَ ، وَكانَتْ عَيْناهُ تَلْمَعانِ كَأنَّهُما

مِصْباحانِ ، وَكانَ شاحِبَ الوَجْهِ وَفي حالَةٍ مُريعَةٍ .

قالَ لي غاضِباً : « اِذْهَبْ لِشأنِكَ ! لا أُريدُكَ وَلا أُريدُ شَيْئاً . اِذْهَبْ ! »

سَأَلْتُهُ : « هَلْ تَعْرِفُني يا أُسْتاذُ وِكسْفورْد ؟ »

أجابَ : « أَجَلْ ، أَنْتَ أَحَدُهُمْ . لا يَهُمُّني مَنْ تَكونُ . أُتْرُكْني وَامْضِ لِشَأنِكَ ! لِماذا لا يَدَعُني النّاسُ لِشَأني ؟ »

قُلْتُ : « يُؤْسِفُني أَنَّني لَنْ أَتْرُكَكَ وَشَأْنَكَ . إِنَّكَ لَسْتَ عَلى ما يُرامُ ، وَإِذا رَفَضْتَ التَّحَدُّثَ إِلَيَّ فَسَأُضْطَرُّ لِاسْتِدْعاءِ الشُّرْطَةِ . »

وَرَفَعَ يَدَهُ حَتّى خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ سَيَضْرِبُني ، وَلكِنَّ يَدَهُ ارْتَجَفَتْ وَتَراخَتْ ، ثُمَّ قالَ : « حَسَنٌ ، اُدْخُلْ . »

وَتَبِعْتُهُ إِلى غُرْفَةٍ صَغيرَةٍ تَقَعُ أَعْلى سُلَّمٍ ضَيِّقٍ ، وَكانَتِ الغُرْفَةُ في حالَةٍ يُرْثى لَها مِنَ الفَوْضى : ثِيابٌ عَلى الأَرْضِ ، وَعَشَراتٌ مِنْ زُجاجاتِ اللَّبَنِ الفارِغَةِ ، وَأَوْراقٌ مُتَناثِرَةٌ هُنا وَهُناكَ عَلى الأَرْضِ ، وَعَلى الكَراسيِّ ، وَعَلى الطّاوِلَةِ ، وَعَلى المَكْتَبِ .

وَجَلَسَ وِكسْفورْد إِلى المَكْتَبِ وَقالَ : « أَزِحْ هذِهِ الأَشْياءَ مِنْ عَلى الكُرْسِيِّ ، وَاجْلِسْ مِنْ فَضْلِكَ . »

أَزَحْتُ أَوْراقاً وَثِياباً وَكُتُباً عَنِ الكُرْسِيِّ ، وَجَلَسْتُ ، وَما إِنْ فَتَحْتُ فَمي لِأَتَكَلَّمَ حَتّى قاطَعَني قائِلاً : « أَعْرِفُ مَنْ أَنْتَ . أَنا لَسْتُ مَجْنوناً . أَنْتَ غرايام ريد ، ماذا تُريدُ ؟ »

كانَتْ كَلِماتُهُ تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ بِخَيْرٍ ، فَقَدْ عَرَفَني ، وَلكِنّي كُنْتُ أَشُكُّ في أَنَّهُ تَذَكَّرَني حَقًّا . قُلْتُ لَهُ : « عَلِمْتُ بِتَرَدُّدِكَ عَلى مَعْمَلِ الجامِعَةِ ، وَإِجْراءِ بَعْضِ التَّجارِبِ لِتَصْنيعِ أَحَدِ عَقاقيرِ الهَلْوَسَةِ . أَلَيْسَ كَذلِكَ ؟ »

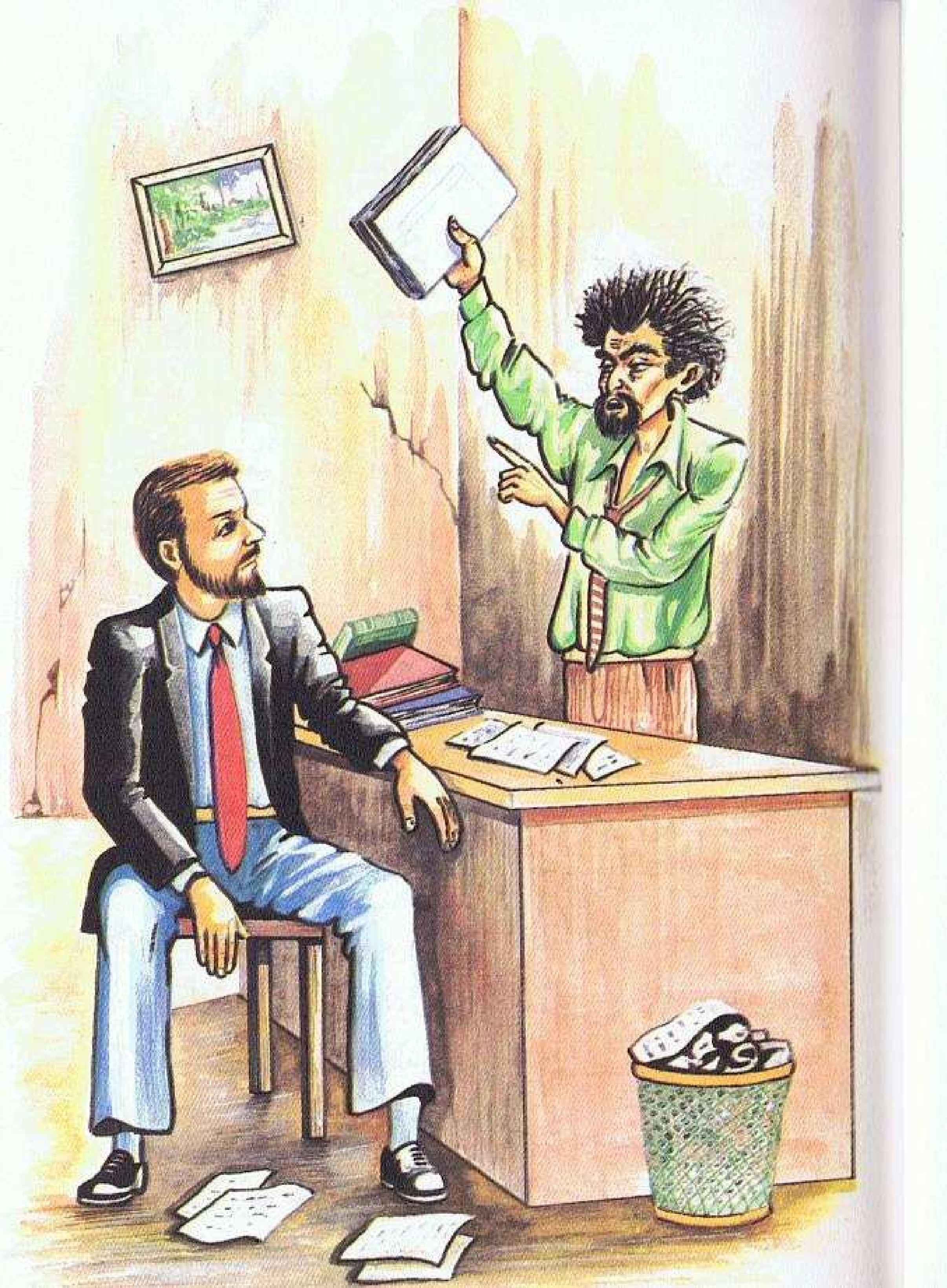
هَزَّ رَأْسَهُ بِبُطْءٍ وَقالَ : « هَلْ تَقْصِدُ تِلْكَ العَقاقيرَ الَّتي يَتَعاطاها الحَمْقى مِنَ الشَّبابِ ؟ لا ، لَقَدْ أَعْدَدْتُ عَقّاراً جَديداً تَماماً ، عَقّاراً يُقَوّي مُخَّ الإِنْسانِ . »

قُلْتُ : « وَهَلْ تَتَعاطى هذا العَقّارَ الآنَ ؟ »

قالَ : « أَجَلْ . »

سَأَلْتُهُ : « لِماذا ؟ »

أَجابَ : « أَلا تَقْرَأُ الصُّحُفَ يا ريد ؟ أَنْتَ – وَلا شَكَّ – تَعْرِفُ الحالَةَ الَّتي وَصَلَ إِلَيْها العالَمُ : مَدافِعُ ، وَقَنابِلُ ، وَحُروبٌ ، وَجَرائِمُ قَتْلٍ ، وَكَراهِيَةٌ ! يَجِبُ أَنْ نَصْنَعَ شَيْئاً ، وَأَنْ نَضَعَ حَدّاً لِهذِهِ الحالَةِ ؛



وَ إلا ستكونُ نِهايةُ العالَم وَشيكَةً .»

قُلْتُ : « وَهَلْ عقّارُكَ هُوَ الَّذي سَيَضعُ ذَلِكَ الحدَّ ؟»

قالَ : « أجلْ ، ولَكِنِّي لَمْ أصنَعْهُ لِيَتعاطاهُ الآخرونَ ، بَلْ صَنَعْتُه لِنَفْسي حتّى أتمكَّنَ مِنَ التَّفْكيرِ بِذِهْنٍ صافٍ ، وَعِنْدَئِذٍ سأَسْتَطيعُ تأليفَ كِتابي الَّذي سَيُغَيِّرُ وَجْهَ العالَم . إنّي أعِدُّهُ يا ريد - أعِدُّ الكِتابَ الَّذي سَيُنْقِذُنا جَميعاً .»

وَأخْرَجَ مِنْ مَكْتَبِهِ دَفْتَراً سَميكاً ، وَنَهَضَ وَأخَذَ يُلَوِّحُ بِهِ بِجُنونٍ ، ثُمَّ قالَ : « ها هُوَ ذا الكِتابُ يا ريد ، الكِتابُ الَّذي سَيُغَيِّرُ وَجْهَ العالَم . مُنْذُ سَنَةٍ وأنا أعْمَلُ فيهِ ، وَ أوشِكُ الآنَ أنْ أفْرَغَ مِنْهُ ، وَالعَقّارُ يُساعِدُني عَلى التَّفْكيرِ بِوُضوح . كِتابي هُوَ الَّذي سَيُنْقِذُ العالَمَ ؛ فَسَوْفَ يُحَوِّلُهُ إلى مَكانٍ صالحٍ لِلنّاسِ جَميعاً .»

وَجَلَسَ ثانِيَةً وَجِسْمُهُ يَرْتَعِدُ كُلُّهُ كَمَنْ أصابَتْهُ الحُمَّى ، حتّى رَأسُهُ كانَ يَرْتَعِدُ !

قُلْتُ لَهُ مُشْفِقاً : « لَكِنَّكَ لَسْتَ عَلى ما يُرامُ .»

قالَ : « أنا بِخَيْرٍ . كُلُّ ما هُنالِكَ أنَّ جِسْمي ناحِلٌ قَليلاً ؛ لأنّي لا أتناوَلُ شَيْئاً غَيْرَ اللَّبَنِ .»

سألْتُه : « لِماذا ؟ »

أجابَ : « كُلُّ ما في الأمْرِ أنَّ تناوُلَ أيِّ شَيْءٍ غَيْرِ اللَّبَنِ سَوفَ يُمْرِضُني ، وهَذا مِنْ تَأثيرِ العقّارِ . »

قُلْتُ : « إذاً أنْتَ تَعيشُ على اللَّبَنِ مُنْذُ سَنَةٍ ؟ »

قالَ : « نَعَمْ ، هُوَ غِذائي الرَّئيسِيُّ ، وَأحْياناً أتناوَلُ قَليلاً مِنَ الطَّعامِ . »

قُلْتُ : « إنَّكَ بِهذا تَقْتُلُ نَفْسَكَ ! »

قالَ : « بَلْ بِهذا أُنْقِذُ العالَمَ ! »

وَلمّا عَرَضْتُ عَلَيْهِ أنْ أصْحَبَهُ إلى الطَّبيبِ ؛ لأنّي أرى أنَّ صِحَّتَهُ لَيْسَتْ على مايُرامُ ، وَلايُمْكِنُني تَرْكُهُ وَهُوَ في مِثْلِ هَذِهِ الحالَةِ ، نَهَضَ غاضِباً وَصاحَ : « فَلْتَذْهَبْ إلى الجَحيمِ ! قُلْتُ لَكَ إنّي بِخَيْرٍ ، وَيَجِبُ أنْ أفْرَغَ مِنْ كِتابي . امْضِ لِشأنِكَ الآنَ ! »

وَنَهَضْتُ أنا بِدَوْري ، وَقُلْتُ لَهُ بِحِدَّةٍ : « لَنْ أمْضيَ ، وَلَنْ أتْرُكَكَ وَأنْتَ على هذِهِ الحالَةِ . »

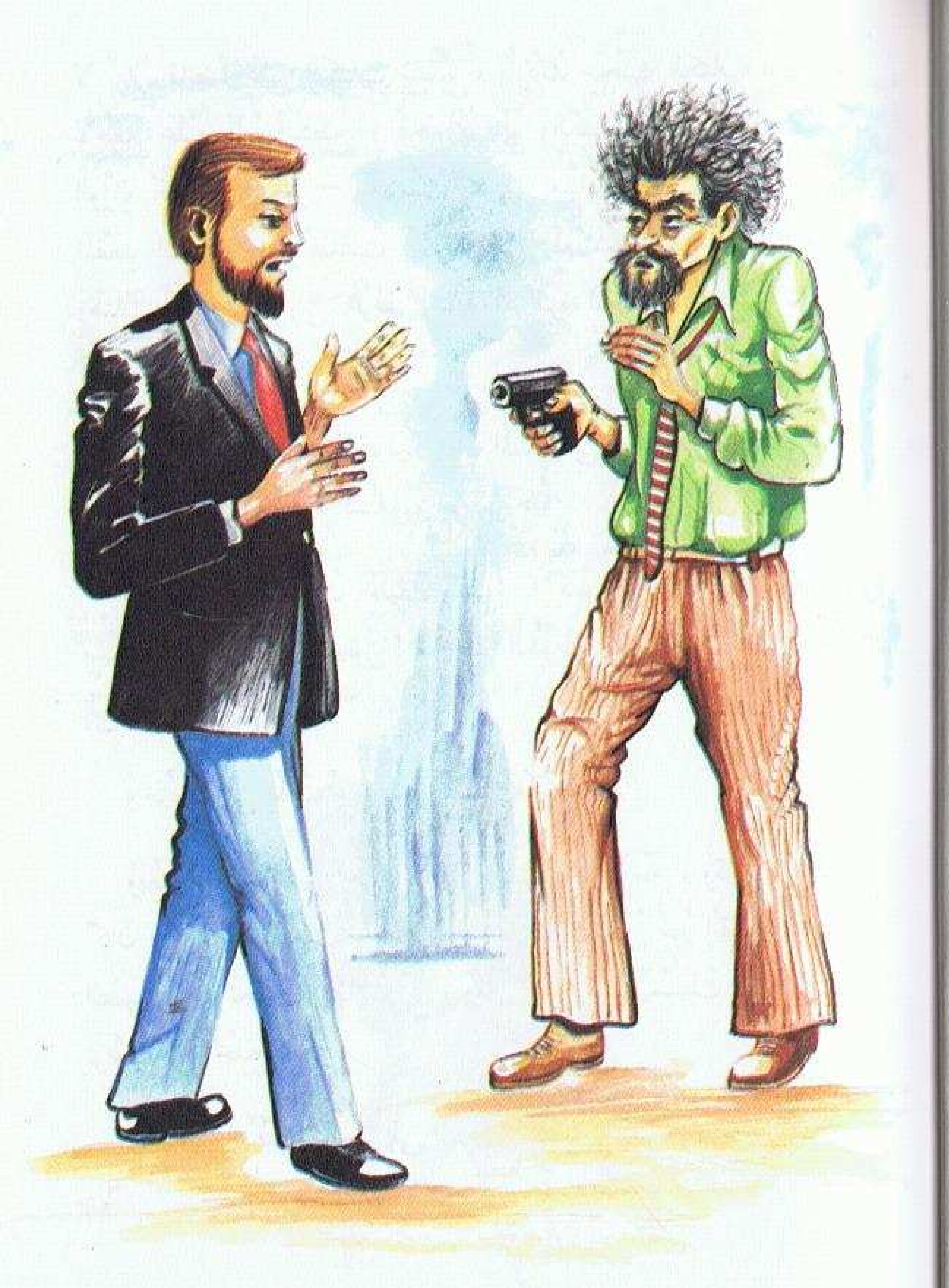
نَظَرَ إلَيَّ طَويلاً ، وَأخيراً هَزَّ رأسَهُ وَقالَ : « حَسَنٌ ، سآتي مَعَكَ . انْتَظِرْني هُنا بُرْهَةً حَتى أغَيِّرَ مَلابِسي ، وَأرْتَدِيَ أخْرى نَظيفَةً . »

وَخَرَجَ مِنَ الغُرْفَةِ وَعادَ بَعْدَ دَقيقَةٍ واحِدَةٍ قائِلاً : « إنَّني آسِفٌ ؛ لأنَّ لِعَمَلي أهَمِّيَّةً بالِغَةً وَلَيْسَ أمامي سِوى هَذا . » ثُمَّ أخْرَجَ يَدَهُ مِنْ وَراءِ ظَهْرِهِ وَفيها مُسَدَّسٌ صَوَّبَهُ نَحْوي ، وَقالَ : « أوشِكُ أنْ أفْرَغَ مِنْ كِتابي ، وَسَيَكونُ جاهِزاً بَعْدَ يَوْمٍ أوْ يَوْمَيْنِ ، وعَلَيْكَ أنْ تَنْتَظِرَ هُنا يَوْماً أوْ يَوْمَيْنِ ، بَعْدَ ذَلِكَ سَوْفَ أذْهَبُ مَعَكَ إلى الطَّبيبِ . »

صِحْتُ فيهِ : « أُسْتاذُ وِكسفورد ! »

لَوَّحَ لي بِالْمُسَدَّسِ بِشَكْلٍ يُنْذِرُ بالخَطَرِ وَقالَ : « لَنْ تُغادِرَ هَذا المَنْزِلَ ! أنا لا أريدُ بِكَ شَرّاً ، وَلَكِنّي لَنْ أتَرَدَّدَ في قَتْلِكَ إذا اضْطَرَرْتَني لِذَلِكَ ؛ فَكِتابي ذُو أهَمِّيَّةٍ قُصْوى لا تُقارَنُ بِحَياةِ إنْسانٍ واحِدٍ ! »

كانَ المُسَدَّسُ يَرْتَجِفُ في يَدِهِ ، وَلَكِنَّني رَأيْتُ أنَّ بِاسْتِطاعَتِهِ اسْتِخْدامَهُ . ثُمَّ أجْبَرَني على الهُبوطِ إلى قَبْوٍ أسْفَلَ مَنْزِلِهِ ، وَأوْصَدَ عَلَيَّ البابَ ، وَبَعْدَ قَليلٍ فَتَحَهُ وَهُوَ مُمْسِكٌ بِمُسَدَّسِهِ ، وَوَضَعَ بَعْضَ الأشْياءِ عَلى الأرْضِ وَقالَ : « هَذا لَكَ . إنَّهُ كُلُّ ما أسْتَطيعُ أنْ أقَدِّمَهُ ... لَبَنٌ وَقَليلٌ مِنَ الطَّعامِ ، وَسَوْفَ يَكْفيكَ ، وَالقَبْوُ دافِئٌ . إنَّني آسِفٌ حَقّاً ، لَكِنّي عَلى أيَّةِ حالٍ ما دَعَوْتُكَ إلى مَنْزِلي . » وَأغْلَقَ عَلَيَّ القَبْوَ ثانِيَةً .



لَوْ كُنْتَ أَنْتَ مَكاني يا عَزيزي بِل لَما أَعْوَزَكَ تَدْبيرُ وَسيلَةٍ لِلْخُروجِ مِنَ القَبْوِ ، فَمِثْلُكَ مُدَرَّبٌ عَلى مُواجَهَةِ أَشَقِّ الصِّعابِ ، وَلكِنّي نَجَحْتُ أَنا أَيْضاً في الخُروجِ مِنْ سِجْني هَذا ، بَعْدَ أَنْ حاوَلْتُ انْتِزاعَ القُفْلِ مِنْ بابِ القَبْوِ ، بِمُدْيَةٍ قَديمَةٍ وَجَدْتُها داخِلَهُ ، وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْهُ إلا بَعْدَ يَوْمَيْنِ .

نَسيتُ أَنْ أَقولَ لَكَ ، يا بِل ، إِنّي لَمْ أُخْبِرْ ديزي بِعَزْمي عَلى زِيارَةِ وِكسفورْد ؛ فَلَمّا تَأَخَّرْتُ أَخْطَرَتِ الشُّرْطَةَ بِغِيابي ، وَلَمْ يَبْحَثوا عَنّي هُناكَ طَبْعاً .

كانَ كُلُّ شَيْءٍ هادِئاً في مَنْزِلِ وِكسفورْد . صَعِدْتُ السُّلَّمَ في هُدوءٍ وَحَذَرٍ ، وَأَصْغَيْتُ فَلَمْ أَسْمَعْ شَيْئاً ، وَتَوَقَّفْتُ عِنْدَ بابِ الغُرْفَةِ ، وَأَرْهَفْتُ السَّمْعَ فَلَمْ أَسْمَعْ شَيْئاً ، فَدَفَعْتُ البابَ فَجْأَةً وَدَخَلْتُ .

كانَ الأُسْتاذُ وِكسفورْد واقِفاً أَمامَ المَكْتَبِ مُمْسِكاً بِدَفْتَرِهِ السَّميكِ ، وَكانَ يَقْرَأُ فيهِ وَيَبْتَسِمُ في سُرورٍ وَوَحْشِيَّةٍ ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِعَيْنَيْنِ لامِعَتَيْنِ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَرَآني فَصاحَ : « لَقَدْ فَرَغْتُ لِتَوّي مِنَ الكِتابِ ! نَعَم فَرَغْتُ مِنْهُ ، وَهُوَ جاهِزٌ الآنَ ! لَقَدْ أَنْقَذْتُ العالَمَ !» ثُمَّ سَقَطَ فَجْأَةً عَلى الأَرْضِ ، وَلَمْ يَتَحَرَّكْ ؛ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ وَانْحَنَيْتُ أَتَسَمَّعُ دَقّاتِ قَلْبِهِ ؛ فَسَمِعْتُ نَبَضاتِهِ بِصُعوبَةٍ بالِغَةٍ ، وَكانَ

لا يَزالُ قابِضاً على الكِتابِ بِشِدَّةٍ ، وَأَرَدْتُ سَحْبَ الكِتابِ مِنْ يَدِهِ لأَطَّلِعَ عَلَيْهِ فَلَمْ أَسْتَطِعْ ؛ فَحَمَلْتُهُ هُوَ وَالكِتابَ – وَكانَ خَفيفَ الوَزْنِ كَطِفْلٍ صَغيرٍ – وَمَضَيْتُ بِهِ إلى سَيَّارَتي حَيْثُ مَدَدْتُهُ عَلى المَقْعَدِ الخَلْفِيِّ ، وَانْطَلَقْتُ مُسْرِعاً إلى المُسْتَشْفى في كِمْبِرِدْج . وَهُناكَ أَسْرَعوا بِهِ إلى غُرْفَةِ العِنايَةِ المُرَكَّزَةِ المُخَصَّصَةِ لِمِثْلِ حالَتِهِ الخَطِرَةِ .

وَاتَّصَلْتُ بِديزي تِليفونِيًّا مِنَ المُسْتَشْفى ، وَأَخْبَرْتُها بِأَنَّني لَمْ أُصَبْ بِمَكْروهٍ ، وَأَنَّ وِكسفورْد مَريضٌ جِداً .

قالَتْ : « انْشَغَلْتُ عَلَيْكَ كَثيراً . كَمْ يُسْعِدُني أَنَّكَ بِخَيْرٍ ! مِسْكينٌ وِكسفورْد العَجوزُ ! سَأُخْطِرُ الشُّرْطَةَ أَنَّكَ بِخَيْرٍ ، ثُمَّ أَحْضُرُ إلى المُسْتَشْفى حالاً .»

وَجاءَتْ إلى المُسْتَشْفى ، وَجَلَسْنا مَعاً نَنْتَظِرُ .

وَبَعْدَ نَحْوِ ساعَتَيْنِ خَرَجَ عَلَيْنا طَبيبٌ وَهَزَّ رَأْسَهُ ، وَقالَ : « لَقَدْ كانَ في غايَةِ الضَّعْفِ ، وَيُؤْسِفُني أَنَّنا لَمْ نَتَمَكَّنْ مِنْ إنْقاذِهِ !» وَمَدَّ الطَّبيبُ يَدَهُ نَحْوي وَبِها شَيْءٌ ، وَقالَ : « كانَ يُمْسِكُ بِهَذا . هَلْ تَرْغَبُ في أَخْذِهِ ؟»

وَأَخَذْتُ الدَّفْتَرَ وَمَضَيْنا إلى المَنْزِلِ .

جَلَسْتُ أَقُصُّ عَلى ديزي ما جَرى وَنَحْنُ نَحْتَسي الشّايَ ، فَقالَتْ: « اِقْرَأْهُ عَلَيَّ . اِقْرَأْ بَعْضَ صَفَحاتِ كِتابِ وِكسفورْد المِسْكينِ !»

وَفَتَحْتُ الكِتابَ عَلى صَفْحَةٍ ما في الوَسَطِ وَقَرَأْتُ : « ... عَنِ المِلْعَقَةِ ، المُعَلَّقَةِ ، يَنْزِلُ القَمَرُ ، يَدْفَعُ الخَطَرَ ، يَهْطِلُ المَطَرُ ، يَكْثُرُ الشَّجَرُ ، هَكَذا الأَنامُ ، عِنْدَما تَنامُ ، كَعْكَةٌ لَنا ، تَجْلُبُ الهَنا ، إنَّهُ الضَّنى ، مَنْ رَأى بَنى ...»

قالَتْ ديزي : « هَذا هُراءٌ ! إنَّهُ لا يَعْني شَيْئاً .»

صَعِدَ الدَّمُ السّاخِنُ إلى وَجْهي وَرَأْسي ، وَتَصَفَّحْتُ صَفْحَةً أُخْرى مِنَ الكِتابِ وَقَرَأْتُ : « ... لَيْسَ بِالصَّحيحِ ، أَنَّ مَنْ يَصيحُ ،



يُسْعِفُ الجَرِيحَ ، نُرِيدُ أَنْ نَكُونَ ، تُوَجِّهُ العُيونُ ، لِمُحْتَوى الصُّحونِ...»

وَأَخَذْتُ أُقَلِّبُ في صَفَحاتِ الدَّفْتَرِ صَفْحَةً بَعْدَ أُخْرى ، لَكِنَّها كانَتْ جَمِيعاً سَواءً ، كانَتْ هُراءً ، الكِتابُ العَظِيمُ الَّذي سَوْفَ يُنْقِذُ العالَمَ لَيْسَ إلا تَخْرِيفاً . نَحَّيْتُ الكِتابَ جانِباً ، وَوَضَعْتُ يَدَيَّ عَلى عَيْنَيَّ وَبَكَيْتُ ، أَجَلْ ، بَكَيْتُ مُنْتَحِباً كَطِفْلٍ تَعِسٍ . لَفَّتْ دِيزي ذِراعَيْها حَوْلي ، وَكانَتْ هِيَ أَيْضاً تَنْتَحِبُ .

وَهَكَذا ، يا عَزِيزي بِل ، مَضى الرَّجُلُ الَّذي أَرادَ أَنْ يُغَيِّرَ العالَمَ لإِنْقاذِنا فَدَمَّرَ عَقْلَهُ . نَعَمْ دَمَّرَ دِماغاً وَعَقْلاً مِنْ أَعْظَمِ العُقولِ الَّتي عَرَفْتُها في حَياتي .

إِنَّني حَتّى هَذِهِ اللَّحْظَةِ أُحِسُّ بِتَعاسَةٍ تَجْعَلُني لا أَسْتَطِيعُ مُواصَلَةَ حَدِيثي مَعَكَ .

وَأُكَرِّرُ لَكَ أَنَّ زِيارَتَكَ لَنا أَسْعَدَتْنا جَمِيعاً ، وَسَوْفَ أَكْتُبُ إِلَيْكَ في وَقْتٍ قَرِيبٍ .

لَكَ مِنّا تَحِيّاتُنا القَلْبِيَّةُ .

أخوك المحب

غرايام

مَلِكُ نابول

كُلِّيَّةُ القِدِّيس جود
كِمْبِرِدْج
في ٢٠ يناير (كانون الثّاني)

عزيزي بل ،

لا شَكَّ في أَنَّكَ غاضِبٌ مِنّي ، وَأَنْتَ مُحِقٌّ في ذَلِكَ ؛ فَلَمْ تَصِلْكَ مِنّي رَسائِلُ مُنْذُ فَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ ، بَيْنَما تَلَقَّيْتُ مِنْكَ رِسالَتَيْنِ بَلْ ثَلاثَ رَسائِلَ . آسِفٌ جِداً ، يا عَزِيزي بِل ، وَأُكَرِّرُ أَسَفي . هَلْ أَعْزو ذَلِكَ إِلى حُزْني عَلى ما جَرى لِلأُسْتاذِ وِكسفورْد ؟ عَلى أَيَّةِ حالٍ أَنا الآنَ لَسْتُ شَدِيدَ الحُزْنِ ، فَقَدْ مَضى عَلى ذَلِكَ الحادِثِ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ .

كَما أَنَّني انْشَغَلْتُ أَيْضاً – كالعادَةِ – فيما تَتَطَلَّبُهُ العُطْلَةُ الخاصَّةُ بالعِيدِ . إِنَّكَ لَمْ تُجَرِّبْ حَياةَ الأَبِ في العِيدِ ؛ فَعَلَيَّ أَنْ أَشْتَرِيَ هَدايا وَأَشْياءَ عَدِيدَةً ، بَيْنَما يَموجُ البَيْتُ بِضَجِيجِ الأَطْفالِ .

وَعِنْدَما أرْغَبُ في قِسْطٍ مِنَ النَّوْمِ فَعَلَيَّ أنْ أخرُجَ مِنَ البَيْتِ ، وَأذْهَبَ إلى حَيْثُ أتناوَلُ فِنْجاناً مِنَ الشَّرابِ .

لكِنْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ هِيَ الأسْبابَ الحَقيقِيَّةَ ، فَعِنْدَما تَصِلُني رَسائِلُكَ أشْعُرُ بِرَغْبَةٍ مُلِحَّةٍ في الكِتابَةِ ، وَما أنا بِالكَسِلِ كَما تَعْرِفُ ، وَلَيْسَ هُناكَ أحَبُّ إلَيَّ وَأمْتَعُ مِنْ رَسائِلِكَ الَّتي تَقولُ عَنْها إنَّها لَيْسَتْ مُمْتِعَةً ؛ لأنَّ الحَياةَ في الجَيْشِ أيّامَ السِّلْمِ لا مُتْعَةَ فيها ، وَيُؤْسِفُني إحْساسُكَ بِالمَلَلِ لكِنَّني سَعيدٌ بِالسَّلامِ ، فَإنَّ السَّلامَ المُمِلَّ خَيْرٌ مِنَ الحَرْبِ المُمْتِعَةِ ! أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟

وَعَلى ذِكْرِ الحَرْبِ ، هَلْ قَرَأتَ ما نُشِرَ في الصُّحُفِ عَنِ الحَرْبِ الَّتي نَشِبَتْ في الشَّهْرِ الماضي في نابول ؟ وَهَلْ تَعْرِفُ أيْنَ تَقَعُ ؟ أ لا تَراهُ سُؤالاً يَصْلُحُ لِمُسابَقَةٍ إذاعِيَّةٍ ؟! لَقَدْ طُفْتَ بِبِلادِ العالَمِ يا بِل ، فَهَلْ تَعْرِفُ الجَوابَ ؟

إنَّ نابول ، في الواقِعِ ، دَوْلَةٌ صَغيرَةٌ جِدّاً ، تَقَعُ إلى الشَّمالِ الشَّرْقِيِّ مِنَ الهِنْدِ عَلى سُفوحِ وَمُرْتَفَعاتِ جِبالِ الهيمالايا ، وَعَدَدُ سُكّانِها لايَزيدُ عَلى المِلْيونِ ، وَغالِبِيَّتُهُمْ مِنْ زُرّاعِ السُّفوحِ الفُقَراءِ ، وَقَليلٌ مِنْهُمْ يَتَعَلَّمُ في المَدارِسِ وَالجامِعاتِ ، وَأعْرِفُ مِنْهُمْ واحِداً هُنا في جامِعَةِ كِمبرِدْج ، وَأدْعوهُ لاني .

كُنْتُ أحَدِّثُكَ عَنِ الحَرْبِ في نابول ، لَعَلَّكَ لَمْ تَقْرَأْ شَيْئاً عَنْها في الصُّحُفِ ، فَلَمْ يُكْتَبْ عَنْها إلا النَّزْرُ القَليلُ ، فَقَدْ كانَتْ حَرْباً صَغيرَةً مَحْدودَةً جِداً ؛ فَجَيْشُ نابول لا يَتَجاوَزُ مِئَةَ الرَّجُلِ ، وَلَمْ يُقاتِلْ بَلَداً آخَرَ ، وَلَمْ تَسْتَمِرَّ الحَرْبُ أكْثَرَ مِنْ ساعَةٍ ، قُتِلَ خِلالَها رَجُلٌ واحِدٌ ، وَلَمْ يَشْتَرِكْ فيها تِلْميذي لاني ، فَقَدْ كانَ وَقْتَها في كِمْبِرِدْج . وَلكِنَّ هَذِهِ الحَرْبَ كانَتْ ذاتَ صِلَةٍ وَثيقَةٍ بِهِ ، وَكانَ لَها أثَرٌ كَبيرٌ عَلَيْهِ .

جاءَ لاني إلى كِمْبِرِدْج مُنْذُ سَنَتَيْنِ وَنِصْفٍ تَقْريباً ، وَعَمِلَ خِلالَ السَّنَتَيْنِ الأولَيَيْنِ بِجِدٍّ كَبيرٍ ، حَيْثُ كانَ يُحَضِّرُ لِشَهادَتَيْنِ مَعاً ؛ إحْداهُما في اللُّغَةِ الإنْجليزِيَّةِ وَالثّانِيَةُ في العُلومِ الزِّراعِيَّةِ . وَكُنْتُ أرى أنَّ ذَلِكَ أكْثَرُ مِمّا يَنْبَغي ، وَعِنْدَما الْتَقَيْتُ بِهِ أوَّلَ مَرَّةٍ قُلْتُ لَهُ : « أعْتَقِدُ ياسَيِّدي بِأنَّ عَلَيْكَ أنْ تَعْمَلَ مِنْ أجْلِ الحُصولِ عَلى شَهادَةٍ واحِدَةٍ فَقَطْ . »

وَلَعَلَّهُ يُدْهِشُكَ ، يا بِل ، أنْ أخاطِبَ تِلْميذاً جَديداً بِيا «سَيِّدي»؟! كُنّا وَقْتَها في لَنْدَن ، في مَكْتَبِ أحَدِ كِبارِ مُوَظَّفي الحُكومَةِ البِريطانِيَّةِ ، وَلَمْ يَدْعُ المُوَظَّفُ الكَبيرُ لاني بِيا «سَيِّدي» ؛ وَإنَّما كانَ يُخاطِبُهُ بِيا « صاحِبَ الجَلالَةِ !» أجَلْ ، يا بِل ، كانَ تِلْميذي الجَديدُ هُوَ مَلِكَ نابول !

وَقَدْ أعجبْتُ بِلاني مُنْذُ اللّقاءِ الأوّلِ ؛ فَهُوَ شابٌّ لَطيفٌ نَشيطُ الحَرَكَةِ ، وَدودٌ في حُدودِ ما يَنْبَغي ، قالَ لي : « إنَّكَ عَلى حَقٍّ يا سَيِّدي الأسْتاذ ؛ وَلكِنَّ الزَّمَنَ هُوَ مُشْكِلَتي ، فَعَلَيَّ أنْ أتَعَلَّمَ الكَثيرَ في وَقْتٍ قَصيرٍ ، ثُمَّ أعودَ لأُعَلِّمَ شَعْبي . دَعْني أجَرِّبْ مُدَّةَ سَنَةٍ ، أحاوِلُ فيها الحُصولَ عَلى الشَّهادَتَيْنِ ، فَإذا لَمْ أفْلِحْ في ذَلِكَ تَخَلَّيْتُ عَنْ إحْداهُما . »

وَعِنْدَما جاءَ إلى كِمبرِدْج ، كُنْتُ دائِماً أدْعوهُ لاني حَتّى لا أنْسى وَأناديَهُ بِيا «سَيِّدي» أوْ يا «صاحِبَ الجَلالَةِ» أمامَ النّاسِ . كانَ عَلَيْنا ألا نُشْعِرَ أحَداً في كِمبرِدْج بِأنَّهُ مَلِكُ نابول ، وَلَمْ يَكُنْ أحَدٌ في كِمبرِدْج يَعْرِفُ هَذِهِ الحَقيقَةَ غَيْرُ اثْنَيْنِ ؛ أنا وَخادِمُهُ العَجوزُ القادِمُ مَعَهُ مِنْ نابول ، وَكانَ عَلَيْنا أنْ نَحْرِصَ كُلَّ الحِرْصِ عَلى أنْ يَظَلَّ هَذا السِّرُّ مَكْتوماً . وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّ نابول قَدِ اسْتَمْتَعَتْ بِالسَّلامِ أمَداً طَويلاً، إلا أنَّ مُلوكَها يَعيشونَ دائِماً في خَطَرٍ ؛ لِذَلِكَ أرْسَلَتْ حُكومَتُنا عَدَداً مِنْ رِجالِ الشُّرْطَةِ لِحِمايَتِهِ ، لكِنَّهُ رَفَضَ ذَلِكَ حَتّى لا يَشْعُرَ بِأنَّهُ مُتَمَيِّزٌ عَنْ بَقِيَّةِ زُمَلائِهِ ، عِنْدَما يَحوطُهُ رِجالُ الشُّرْطَةِ طَوالَ الوَقْتِ لِحِراسَتِهِ .

وَفي كُلِّ ثُلاثاء كانَ يَأتي رَجُلٌ مِنْ لَنْدَن وَيُعْطيني حَقيبَةَ أوْراقٍ ذاتَ قُفْلٍ تَحْتَوي عَلى بَريدِ لاني ، وَكُنْتُ أسَلِّمُها إلَيْهِ في مَكْتَبي،

فَيُسَلِّمُني حَقيبَةً أخْرى مُشابِهَةً ، بِها رُدودُهُ عَلى بَريدِهِ .

لَقَدْ كانَ طالِباً مُدْهِشاً يا بِل ؛ فَقَدْ عَرَفْتُ الكَثيرَ مِنَ الطُّلابِ المُجِدّينَ ، كانَ بَعْضُهُمْ غايَةً في الذَّكاءِ مِثْلَ لاني ؛ لَكِنّي لَمْ أعْرِفْ في حَياتي رَجُلاً يَعْمَلُ مِثْلَ لاني . وَبَعْدَ أنْ أنْهى سَنَتَهُ الأولى تَحَدَّثْتُ مَعَ أسْتاذِهِ في العُلومِ الزِّراعِيَّةِ ، فَقالَ لي : « إنَّ لاني هُوَ أفْضَلُ طُلابِهِ في هَذِهِ السَّنَةِ ؛ فَقَدِ اسْتَطاعَ أنْ يُحَقِّقَ بِكَدِّهِ ما عَقَدَ العَزْمَ عَلَيْهِ ، وَنَجَحَ في ذَلِكَ ، وَباسْتِطاعَتِهِ أنْ يَحْصُلَ عَلى الشَّهادَتَيْنِ مَعاً . »

شَرَعْتُ في تَعَلُّمِ لُغَةِ أهْلِ نابول ، وَكانَتْ لُغاتُ ذَلِكَ الجُزْءِ مِنَ العالَمِ هِيَ مَوْضوعَ دِراسَتي الخاصِّ – كَما تَعْلَمُ – وَهِيَ لُغَةٌ بالِغَةُ الصُّعوبَةِ ، وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ ضيقِ وَقْتي فَقَدْ بَدَأتُ أفْهَمُها . وَبَيْنَما أنا أتَحَدَّثُ مَعَ لاني ذاتَ مَرَّةٍ كَلَّمْتُهُ بِلُغَةِ نابول .

قالَ مُتَعَجِّباً : « إنَّكَ تَتَكَلَّمُ لُغَتي ! »

ابْتَسَمْتُ لَهُ وَقُلْتُ : « أتَمَنّى ذَلِكَ ؛ فَقَدْ دَرَسْتُها مُنْذُ زَمَنٍ ، وَلَكِنّي لَمْ أتْقِنِ التَّحَدُّثَ بِها بَعْدُ . »

سَألَني : « هَلْ تَجِدُ مُتْعَةً أوْ رَغْبَةً في التَّعَرُّفِ عَلى نابول ؟ أعْني

لُغتِها وَشعبِها وَعاداتِها .»

أجبْتُه : « أجَلْ .» وَذَكَرتُ لَهُ كُتُباً عَديدَةً كُنْتُ قَدْ قَرأْتُها عَنْ نابول .

قالَ : « إذاً أرْجو أنْ تَقبَلَ دَعْوَتي لِتناوُلِ العَشاءِ مَعي . إنَّ لَدَيَّ أشْياءَ قَدْ تَجِدُ مُتْعَةً عِنْدَ رُؤْيَتِها .»

وَكانَ عُنْوانُ مَنْزِلِهِ مَعْروفاً لَدَيَّ ؛ بَلْ كُنْتُ الوَحيدَ الَّذي يَعْرِفُ مَكانَهُ لِدَواعي أمْنِهِ وَحِمايَتِهِ ؛ فَذَهَبْتُ إلى بَيْتِهِ الصَّغيرِ خارِجَ كِمبرِدْج تَلْبِيَةً لِدَعْوَتِهِ ، وَكانَ يَعيشُ فيهِ مَعَ خادِمِهِ القادِمِ مَعَهُ مِنْ نابول ، وَلَمْ يَكُنِ البَيْتُ مِنَ الخارِجِ سِوى بَيْتٍ إنْجليزيٍّ صَغيرٍ ، لَكِنَّكَ عِنْدَما تَدْخُلُهُ لاتَجِدُ فيهِ شَيْئًا ذا مَسْحَةٍ أوربِيَّةٍ ؛ وَإنَّما تَشْعُرُ بِأنَّكَ تَعيشُ في نابول . فَأنْتَ تَجِدُ فُنونَ نابول أمامَ عَيْنَيْكَ ، حَيْثُ تَسودُ الألْوانُ البَرّاقَةُ الطّاوِلاتِ ، وَالكَراسِيَّ ، وَالأرْضَ ، وَالجُدْرانَ ، وَكُلُّ ما فيهِ مَصْنوعٌ مِنَ الخَشَبِ بِأناقَةٍ فائِقَةٍ ، وَمِنَ النَّسيجِ النّابوليِّ الثَّمينِ بِبَراعَةٍ مُدْهِشَةٍ ، وَرُحْتُ أنْظُرُ وَأحَدِّقُ فيما أرى .

وَضَحِكَ لاني وَهُوَ يَقولُ لي : « هَلْ أعْجَبَكَ بَيْتي البَعيدُ عَنِ الوَطَنِ ، يا أُسْتاذُ ؟»

قُلْتُ : « إنَّهُ مُدْهِشٌ حَقًّا يا سَيِّدي .. أقْصِدُ يا لاني . وَلَمْ يَكُنْ مِنَ اللِّياقَةِ أنْ أحَدِّقَ هكَذا ، وَلَكِنّي لَمْ أتَمالَكْ نَفْسي أمامَ كُلِّ هَذِهِ الأشْياءِ الجَميلَةِ الرّائِعَةِ .»

وَكانَتْ وَجْبَةُ الطَّعامِ نابولِيَّةً أيْضاً ، وَلَيْسَتْ مِمّا اعْتَدْتُ تَناوُلَهُ مِنْ طَعامٍ . وَبَيْنَما كُنّا نَتَناوَلُ الطَّعامَ لَفَتَ نَظَري سَيْفٌ قَصيرٌ يَتَوَسَّطُ إطاراً مُعَلَّقاً عَلى الجِدارِ كَإطارِ الصّورَةِ . كانَ سَيْفاً بَتّاراً ، لَكِنَّ مِقْبَضَهُ كانَ مَصْنوعاً مِنَ الذَّهَبِ الخالِصِ ، المُرَصَّعِ بِمِئاتٍ مِنْ قِطَعِ الأحْجارِ الكَريمَةِ النّادِرَةِ .

وَأشَرْتُ إلى السَّيْفِ مُتَسائِلاً : « ما هَذا يا لاني ؟»

رَفَعَ نَظَرَهُ إلَيْهِ وَقالَ : « إنَّهُ سَيْفٌ طَبْعاً ، وَنَحْنُ نُسَمّيهِ «الرّوك».»

وَابْتَسَمْتُ لِغَلْطَةِ طالِبي اللُّغَوِيَّةِ ، وَقُلْتُ : « تَقْصِدُ «روك» .»

قالَ : « حَسَنٌ ، نُسَمّيهِ روك .»

قُلْتُ : « رائِعٌ حَقًّا هَذا الرّوك . إنَّهُ روك المَلِكِ ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

قالَ : « لا أسْتَطيعُ أنْ أوَضِّحَ لَكَ الأمْرَ بِيُسْرٍ . دَعْني أقُلْ إنَّ


المَلِكَ فَقَطْ يَسْتَطيعُ اسْتِخْدامَهُ .»

أدْهَشَني ذَلِكَ فَقُلْتُ : « اِسْتِخْدامُهُ ؟! لِماذا تَسْتَخْدِمُهُ ؟»

قالَ : « أعْني في الأوْقاتِ الهامَّةِ .» وَغَيَّرَ مَجْرى الحَديثِ ، فَقالَ : « جَرِّبْ هَذا النَّوْعَ مِنَ الجُبْنِ يا أسْتاذُ .»

بَعْدَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ تَناوَلْتُ العَشاءَ مَعَ لاني مِراراً ، وَلَمْ أرَ عِنْدَهُ زُوّاراً قَطُّ . وَلَمْ يَحْدُثْ أنْ مَكَثْتُ عِنْدَهُ إلى وَقْتٍ مُتَأخِّرٍ ؛ فَبَعْدَ الفَراغِ مِنْ شُرْبِ القَهْوَةِ عَقِبَ العَشاءِ يَقولُ لاني مُبْتَسِماً : « عَلَيَّ – في الواقِعِ – أنْ أقومَ بِبَعْضِ العَمَلِ يا أسْتاذُ .» فَأجيبُهُ : « نَعَمْ ، أفْهَمُ ذَلِكَ تَماماً .» ثُمَّ يُحْضِرُ الخادِمُ العَجوزُ مِعْطَفي ، عَلى حينَ يَبْدَأُ لاني في إخْراجِ كُتُبِهِ . وَلا أظُنُّ أنَّ أحَداً مِنْ أفْرادِ شَعْبِ نابول يَعْمَلُ كَما يَعْمَلُ مَلِكُهُمْ .

وَتابَعْتُ دِراسَةَ اللُّغَةِ النّابولِيَّةِ عَلى الرَّغْمِ مِنْ ضيقِ وَقْتي . وَذاتَ مَساءٍ بَعْدَ تَناوُلِ العَشاءِ قالَ لاني : « أريدُ أنْ أرِيَكَ شَيْئاً ما .» وَغادَرَ الغُرْفَةَ ثُمَّ عادَ وَمَعَهُ كِتابٌ أنيقٌ ، غِلافُهُ مِنْ جِلْدٍ ، مَطْبوعٌ عَلَيْهِ بِأحْرُفٍ مِنْ ذَهَبٍ ، وَبِداخِلِهِ صُوَرٌ جَيِّدَةٌ رَسَمَها الفَنّانونَ بِأيْديهِمْ . كانَ الكِتابُ قَديماً جِداً ، وَكانَتْ لُغَتُهُ النّابولِيَّةَ .

ناوَلَني الكِتابَ وَقالَ : « هَذا كِتابُ نابول ، إنَّهُ يَرْوي قِصَّتَها ، وَيَصِفُ عاداتِنا جَميعَها ، كَتَبَهُ مَلِكٌ مِنْ مُلوكِها مُنْذُ مِئَتَيْ سَنَة ، فَهَلْ – بَعْدَ أنْ تَعَلَّمْتَ الكَثيرَ مِنْ لُغَتِنا – تَرْغَبُ في أنْ تَسْتَعيرَ الكِتابَ وَتَقْرَأَهُ ؟»

هَزَزْتُ رَأسي لأُبْدِيَ رَفْضي ، وَقُلْتُ : « لا أَسْتَطيعُ يا لاني . إنَّ هَذا الكِتابَ نَفيسٌ جِداً ، وَقَدْ لا أَسْتَطيعُ المُحافَظَةَ عَلَيْهِ كَما يَنْبَغي .»

قالَ لاني : « لا داعِيَ لِلْقَلَقِ يا أسْتاذُ . إنَّ الكِتابَ نَفيسٌ حَقًّا ، وَلكِنَّهُ لَيْسَ نَفيساً جِداً ، فَهُوَ نُسْخَةٌ حَديثَةٌ ، أمّا النُّسْخَةُ القَديمَةُ فَمَحْفوظَةٌ في نابول . خُذِ الكِتابَ وَاقْرَأْهُ ، وَأعْتَقِدُ أنَّهُ سَيَكونُ شائِقاً بِالنِّسْبَةِ لَكَ .»

وَلَمْ أجِدْ بُدّاً مِنْ أخْذِ الكِتابِ ، وَلكِنّي لَمْ أسْتَطِعْ قِراءَتَهُ بِسُرْعَةٍ ؛ لأنَّهُ كُتِبَ بِاللُّغَةِ النّابولِيَّةِ القَديمَةِ ، وَلَمْ أكُنْ قَدْ تَعَلَّمْتُ إلا اللُّغَةَ النّابولِيَّةَ الحَديثَةَ في بادِئِ الأمْرِ . وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ صُعوبَةِ اللُّغَةِ النّابولِيَّةِ الحَديثَةِ إلا أنَّ اللُّغَةَ النّابولِيَّةَ القَديمَةَ – لُغَةَ الأدَبِ – عَسيرَةٌ جِداً وَتَكادُ تَسْتَعْصي عَلى الفَهْمِ ، غَيْرَ أنَّ هَذا لَمْ يَمْنَعْني مِنَ المُحاوَلَةِ ، فَحاوَلْتُ ساعاتٍ تَعَلَّمْتُ فيها قَدْراً ضَئيلاً مِنَ الكِتابِ،

فَكُنْتُ أفْهَمُ جُمْلَةً مِنْ هُنا وَجُمْلَةً مِنْ هُناكَ . وَبَعْدَ ذَلِكَ انْشَغَلْتُ جِدا بِعَمَلي ، فَنَسيتُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ الكِتابِ ، كَما نَسِيَ لاني أنْ يَسْألَني عَنْهُ ؛ لِذا ظَلَّ الكِتابُ في بَيْتي .

وَتَغَيَّرَ لاني في خِلالِ السَّنَةِ الثّالِثَةِ مِنْ دِراسَتِهِ في كَمْبِرِدْج ، فَلَمْ يَعُدْ كَسابِقِ عَهْدِهِ مِثالاً لِلطّالِبِ المُجِدِّ المُثابِرِ ؛ فَقَدْ تَخَلّى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَمْ أجِدْ في نَفْسي تَعْليلاً مَعْقولاً لِذَلِكَ ، فَتَحَدَّثْتُ إلى أسْتاذِهِ في العُلومِ الزِّراعِيَّةِ ، الَّذي أكَّدَ مَخاوِفي بِقَوْلِهِ : « لاني لا يَكادُ يَعْمَلُ .» لِذا ذَهَبْتُ إلى لَنْدَن لِمُقابَلَةِ مُوَظَّفٍ حُكومِيٍّ هامٍّ في الخارِجِيَّةِ ، وَلَمّا حَدَّثْتُهُ عَنِ المُشْكِلَةِ لَمْ يُبْدِ أيَّةَ دَهْشَةٍ ، وَقالَ: « لَعَلَّ لَدى مَلِكِ نابول أشْياءَ أخْرى تَشْغَلُهُ .»

قُلْتُ : « أيَّةُ أشْياءَ ؟»

قالَ : « احْتِمالُ وُقوعِ انْقِلابٍ أوْ مَشاكِلَ مَعَ عَمِّهِ .» ثُمَّ حَدَّثَني عَنْ أشْياءَ تَجْري في نابول ، وَقالَ : « عَمُّ طالِبِكَ يُريدُ أنْ يَنْتَزِعَ مِنْهُ المُلْكَ ، وَهُوَ يَتَلَقّى العَوْنَ مِنْ بَلَدٍ آخَرَ ، وَنَحْنُ نَعْتَقِدُ أنَّ الانْقِلابَ مُحْتَمَلٌ بِحَرَكَةٍ مُفاجِئَةٍ لِتَغْييرِ المَلِكِ . وَلا شَكَّ في أنَّ المَلِكَ يَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْ خِلالِ الصُّحُفِ الَّتي نُرْسِلُها إلَيْهِ كُلَّ أسْبوعٍ ، وَعَلى ذَلِكَ تَجِدُ أنَّ دِراسَتَهُ الجامِعِيَّةَ لَمْ تَعُدْ ذاتَ أهَمِّيَّةٍ لَهُ .»

في اليَوْمِ التّالي طَلَبْتُ إلى لاني الحُضورَ إلى مَكْتَبي .

قُلْتُ لَهُ : « يَبْدو أنَّكَ لاتَعْمَلُ كَما يَنْبَغي . اِسْمَعْني جَيِّداً يا لاني ، إنْ لَمْ تُحَسِّنْ وَضْعَكَ فَلَنْ تَكونَ مِنَ النّاجِحينَ هَذا العامَ . »

اِبْتَسَمَ بِمَرارَةٍ وَقالَ : « لَمْ يَعُدْ ذَلِكَ مُهِمّاً الآنَ . إنَّني آسِفٌ يا أُسْتاذُ . »

سَأَلْتُهُ : « هَلْ ما يَحْدُثُ في نابول هُوَ السَّبَبُ يا لاني ؟ هَلْ يَشْغَلُكَ ذَلِكَ عَنْ مُتابَعَةِ الدِّراسَةِ ؟ »

قالَ بِدَهْشَةٍ : « ماذا تَعْرِفُ عَنْ ذَلِكَ ؟ »

فَلَمّا أَخْبَرْتُهُ عَنْ ذَهابي إلى لَنْدَن ، قالَ : « قَدْ فَهِمْتَ الآنَ ، وَلَوْ أنَّ حُكومَتَكُمْ لا تَفْهَمُ ما يَجْري حَقّاً . نَعَمْ ذَلِكَ هُوَ السَّبَبُ . لَمْ تَعُدْ لِدِراسَتي جَدْوى الآنَ بَعْدَ أنْ فَقَدْتُ الهَدَفَ مِنَ الدِّراسَةِ ، وَلا أَسْتَطيعُ العَمَلَ دونَ هَدَفٍ . »

قُلْتُ : « إذاً لِماذا لا تَذْهَبُ إلى وَطَنِكَ نابول لِتَسْوِيَةِ الأُمورِ هُناكَ ؛ فَتُعْنى بِشَعْبِكَ ، وَتَسْتَعيدَ هَدَفَكَ ، ثُمَّ تَعودَ إلى هُنا وَتُكْمِلَ

دِراساتِكَ . »

هَزَّ رَأْسَهُ وَقالَ : « لا جَدْوى مِنْ ذَلِكَ . تَذَكَّرْ أنَّ لي عُيُوناً هُناكَ ، وَأنا أعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ الأوْضاعِ في بِلادي ، وَأَعْلَمُ أنَّني خَسِرْتُ ، وَذَهابي إلى نابول الآنَ لا يُجْدي . »

قُلْتُ : « ما دُمْتَ سَتَبْقى هُنا فَعَلَيْكَ أنْ تَعْمَلَ ؛ أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ فَمِنَ الخَيْرِ لِنابول أنْ تَحْصُلَ عَلى دَرَجاتِكَ العِلْمِيَّةِ . »

قالَ : « أنْتَ عَلى حَقٍّ يا أسْتاذُ . سَوْفَ أُخْرِجُ كُتُبي مِنْ جَديدٍ . » وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ .

وَمَرَّتِ الأسابيعُ وَالشُّهورُ وَازْدادَ خَطَرُ وُقوعِ انْقِلابٍ في نابول ، وَبَدَأَتْ تَتَسَرَّبُ إلى الصُّحُفِ أخْبارٌ قَليلَةٌ عَنْهُ . ثُمَّ حَدَثَ الانْقِلابُ في الشَّهْرِ الماضي ، سَمِعْتُ عَنْهُ في أخْبارِ السّاعَةِ السّادِسَةِ مِنَ الإذاعَةِ ، وَجاءَ في النَّشْرَةِ : « وَقَعَ انْقِلابٌ في نابول ، وَقُتِلَ جُنْدِيٌّ واحِدٌ ، وَأَعْلَنَ ذَلِكَ عَمُّ المَلِكِ . » أيْ عَمُّ لاني « وَأَخْبَرَ الشَّعْبَ بِأنَّهُ الآنَ حاكِمُ نابول . » ثُمَّ سَمِعْتُ ، يا بِل ، أمْراً أدْهَشَني حَقّاً ، فَقَدْ قالَ الحاكِمُ الجَديدُ : « إنَّ المَلِكَ قَدْ ماتَ ! »

وَأَخَذْتُ أُسائِلُ نَفْسي : ماتَ لاني ؟ كَيْفَ ذَلِكَ ؟! لَقَدْ رَأَيْتُهُ

مُنْذُ ساعةٍ فَقَطْ في إحْدى المُحاضَراتِ ، فَكَيْفَ يُذاعُ أَنَّهُ قَدْ ماتَ ؟ لاشَكَّ في أَنَّهُ مُجَرَّدُ كَلام لا أَكْثَرَ ، وَلاني لَمْ يَمُتْ . وَجَلَسْتُ أُفَكِّرُ مُحاوِلاً أَنْ أَتَذَكَّرَ شَيْئًا ما ، وَأَخيراً تَذَكَّرْتُهُ ؛ فَقُمْتُ مِنْ فَوْري وَأَخْرَجْتُ كِتابَ نابول – الكِتابُ الَّذي أَرادَني لاني أَنْ أَقْرَأَهُ – وَبَحَثْتُ فيهِ عَنِ الشَّيْءِ الَّذي تَذَكَّرْتُهُ حَتى وَجَدْتُهُ ، فَقَرَأْتُهُ بِبُطْءٍ وَعَناءٍ شَديدَيْنِ . وَوَضَحَ لِيَ الأَمْرُ .

رَكِبْتُ سَيّارَتي في الحالِ ، وَمَضَيْتُ مُسْرِعًا إلى مَنْزِلِ لاني . وَقَرَعْتُ الجَرَسَ ، فَلَمْ أَتَلَقَّ إجابَةً لِفَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ ، ثُمَّ ظَهَرَ الخادِمُ النّابولِيُّ العَجوزُ عِنْدَ البابِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَرْتَدي حُلَّتَهُ السَّوْداءَ المُعْتادَةَ . بَلْ كانَتْ عَلَيْهِ حُلَّةٌ نابولِيَّةٌ جَميلَةٌ مُزَرْكَشَةٌ بِاللَّوْنَيْنِ الأَحْمَرِ والذَّهَبِيِّ .

قُلْتُ لَهُ : « أُريدُ أَنْ أَرى لاني . »

هَزَّ الخادِمُ رَأْسَهُ وَقالَ بِلَهْجَةٍ إنْجليزِيَّةٍ رَكيكَةٍ : « لَيْسَ مُمْكِنًا . لَيْسَ مُمْكِنًا . » فَتَجاوَزْتُهُ إلى غُرْفَةِ الجُلوسِ ، وَعِنْدَها وَجَدْتُ نَفْسي في نابول ، وَكانَ مَلِكُها هُناكَ . كانَ يَرْتَدي هَذِهِ المَرَّةَ حُلَّةَ المَلِكِ ، وَيَجْلِسُ مُتَرَبِّعًا عَلى سَجّادَةٍ رائِعَةٍ عَلى أَرْضِ الغُرْفَةِ . وَعِنْدَما رَآني نَهَضَ لِلِقائي ، ثُمَّ نَظَرْتُ إلى الإطارِ المُعَلَّقِ عَلى الحائِطِ ، فَوَجَدْتُهُ

فارِغًا .

سَأَلْتُ لاني : « أَيْنَ الرّوك ؟ »

نَعَمْ ، قُلْتُ «الرُّوك» مُعَرَّفًا ، فَقَدْ كانَ لاني عَلى صَوابٍ عِنْدَما حَكى لي عَنْهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ . إنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ سَيْفٍ يَتَقَلَّدُهُ المَلِكُ في المُناسَباتِ الهامَّةِ ، بَلْ كانَ فَريداً في نَوْعِهِ ، وَلَهُ عَمَلٌ خاصٌّ يُؤَدّيهِ– عَمَلٌ رَهيبٌ ؛ فَقَدْ عَلِمْتُ مِنْ كِتابِ نابول القَديم أَنَّ الرّوك أَدّى عَمَلَهُ مَرَّتَيْنِ مِنْ قَبْلُ . وَلاذَ لاني بِالصَّمْتِ وَلَمْ يُجِبْ ، فَسَأَلْتُهُ ثانِيَةً: « أَيْنَ الرّوك يا لاني ؟ أُريدُ أَنْ أَراهُ . »

هَزَّ رَأْسَهُ بِبُطْءٍ وَقالَ : « أَنْتَ تَعْرِفُ إذاً يا أُسْتاذُ ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

قُلْتُ : « بَلى ، أَعْرِفُ . »

« مِنَ الكِتابِ ؟ »

« نَعَمْ ، مِنَ الكِتابِ . »

« إذاً أَنْتَ تَعْرِفُ كَذَلِكَ أَنّي لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُريكَ إيّاهُ . »

« سَتَقْتُلُ نَفْسَكَ بِهِ ! هَلْ سَتَفْعَلُ ذَلِكَ حَقًّا ؟»

« هَذا ما جَرَتْ عَلَيْهِ العادَةُ .»

« عادَةٌ سَنَّها مَلِكٌ مُنْذُ ما يَقْرُبُ مِنْ مِئَتَيْنِ وَخَمْسينَ عاماً .»

تَساءَلَ لاني : « وَهَلْ لِذَلِكَ أَهَمِّيَّةٌ ؟»

قُلْتُ : « لَقَدِ اسْتَوْلى عَلَيْكَ الشُّعورُ بِأَنَّكَ فَشِلْتَ ، وَعَلى مُلوكِ نابول أَنْ يَسْتَخْدِموا الرّوك عِنْدَما يُخْفِقونَ . نَعَمْ ، لَقَدْ أَخْفَقْتَ لا لِأَنَّكَ لَمْ تَسْتَطِعِ الحَيْلولَةَ دونَ وُقوعِ انْقِلابٍ ؛ وَإِنَّما لِأَنَّكَ تَخَلَّيْتَ عَنْ دِراساتِكَ ، وَعُقوبَةُ ذَلِكَ لَيْسَتِ اسْتِخْدامَ الرّوك ؛ وَإِنَّما هِيَ شَهْرانِ مِنَ الدِّراسَةِ الجادَّةِ تَحْصُلُ بَعْدَهُما عَلى دَرَجاتِكَ .»

« لَسْتُ في حاجَةٍ إِلى الدِّراسَةِ ؛ فَلَمْ أَعُدِ المَلِكَ الآنَ .»

« بَلْ أَنْتَ في أَشَدِّ الحاجَةِ إِلى دَرَجَةٍ عِلْمِيَّةٍ كَيْ تَسْتَطيعَ الحُصولَ عَلى عَمَلٍ . أَكْمِلْ دِراساتِكَ ، وَعُدْ إِلى نابول ، وَأَسْهِمْ في زِيادَةِ مَحاصيلِها .»

« سَوْفَ يَقْتُلونَني .»

« عِنْدَئِذٍ لن تكونَ أَنْتَ الَّذي قَضَيْتَ عَلى نَفْسِكَ . مَنْ يَدْري لَعَلَّهُم لا يَفْعَلونَ ، أَمْ أَنَّ مَلِكَ نابول يَعْرِفُ الغَيْبَ أَيْضاً ؟!»

هَزَّ لاني رَأْسَهُ في صَمْتٍ .

قُلْتُ : « يا صاحِبَ الجَلالَةِ ، لَنْ أَسْمَحَ لَكَ بِأَنْ تُقْدِمَ عَلى فَعْلَتِكَ الرَّهيبَةِ هُنا في إِنْجِلْترا ، سَأَمْنَعُكَ .»

قالَ بِنَبْرَةٍ حَزينَةٍ : « كَيْفَ سَتَمْنَعُني ؟»

قُلْتُ : « كَما هُوَ مُدَوَّنٌ بِالكِتاب : ‹‹عِنْدَما يُخْفِقُ المَلِكُ ، عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ الرّوك ، وَأَنْ يكونَ وَحيداً عِنْدَما يَسْتَخْدِمُهُ ، وَلا يَجوزُ أَنْ يَشْهَدَ ذَلِكَ إِلا القَيِّمُ عَلى الرّوك.›› إِنَّ خادِمَكَ هُوَ القَيِّمُ عَلَيْهِ ، أَ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

قالَ : « بَلى .»

وَرَأَيْتُ لاني يَنْظُرُ إِلى شَيْءٍ خَلْفي ، فَتَلَفَّتُّ حَوْلي فَإِذا بِالخادِمِ العَجوزِ قَدْ دَخَلَ إِلى الغُرْفَةِ ، وَكانَ الرّوك في يَدِهِ ، فَقُلْتُ بِجُرْأَةٍ وَحَزْم : « إِنَّكَ لَنْ تكونَ بِمُفْرَدِكَ ، يا صاحِبَ الجَلالَةِ . سَوْفَ أَمْكُثُ مَعَكَ ، وَبِذَلِكَ لَنْ تَتَمَكَّنَ مِنَ القِيامِ بِفَعْلَتِكَ .»

قالَ : « لا جَدْوى مِنْ ذَلِكَ يا أُسْتاذُ ، ما دُمْتَ قَدْ قَرَأْتَ الكِتابَ فَلاشَكَّ في أَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ أيَّ دَخيلٍ يَجِبُ أَنْ ..»

قُلْتُ : « نَعَمْ، أَعْلَمُ ذَلِكَ . قَرَأْتُ أَنَّ عَلى الرّوك أَنْ يَفْتَحَ طَريقاً لِلرّوك !»

اِسْتَدَرْتُ وَواجَهْتُ القَيِّمَ عَلى الرّوك ، وَأَصْبَحْتُ أَمامَهُ مُباشَرَةً ، ثُمَّ تابَعْتُ حَديثي قائِلاً : « إذاً مُرِ القَيِّمَ أَنْ يُؤَدِّيَ عَمَلَهُ ، لأَنّي لَنْ أُغادِرَ الغُرْفَةَ !»

كانَ القَيِّمُ قَدْ أَحْكَمَ قَبْضَةَ يَدِهِ عَلى الرّوك إِحْكاماً شَديداً . وَارْتَفَعَ السَّيْفُ القَصيرُ الماضي إِلى أَعْلى قَليلاً .

قُلْتُ لِلاني : « ماذا سَتَخْتارُ يا صاحِبَ الجَلالَةِ ؛ تَقاليدَ مِئاتِ سِنينَ مَضَتْ ، أَمْ أَنّي أَتَحَدَّثُ إِلى مَلِكٍ مِنْ مُلوكِ العَصْرِ يَدْرُسُ في جامِعَةٍ عَصْرِيَّةٍ ؟»

نَظَرَ لاني إِلَيَّ ثُمَّ نَظَرَ إِلى خادِمِهِ ، لكِنَّ شَيْئاً لَمْ يَحْدُثْ لِفَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ ، ثُمَّ أَشارَ لِلْخادِمِ بِأَنْ يُغادِرَ الغُرْفَةَ ، وَعِنْدَئِذٍ بَدَأَ الخادِمُ يَنْدَفِعُ في الحَديثِ بِاللُّغَةِ النّابولِيَّةِ ، وَقَدْ بَدا عَلَيْهِ الغَضَبُ . وَبَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَ لاني إِلى خادِمِهِ فَتْرَةً طَويلَةً مَدَّ يَدَهُ ، فَقَدَّمَ النّابولِيُّ العَجوزُ إِلَيْهِ الرّوك

عَلى مَهَلٍ ، ثُمَّ اسْتَدارَ وَغادَرَ الغُرْفَةَ ، فَتَوَجَّهْتُ إِلى لاني وَمَدَدْتُ إِلَيْهِ يَدي قائِلاً : « سَوْفَ آخُذُهُ .»

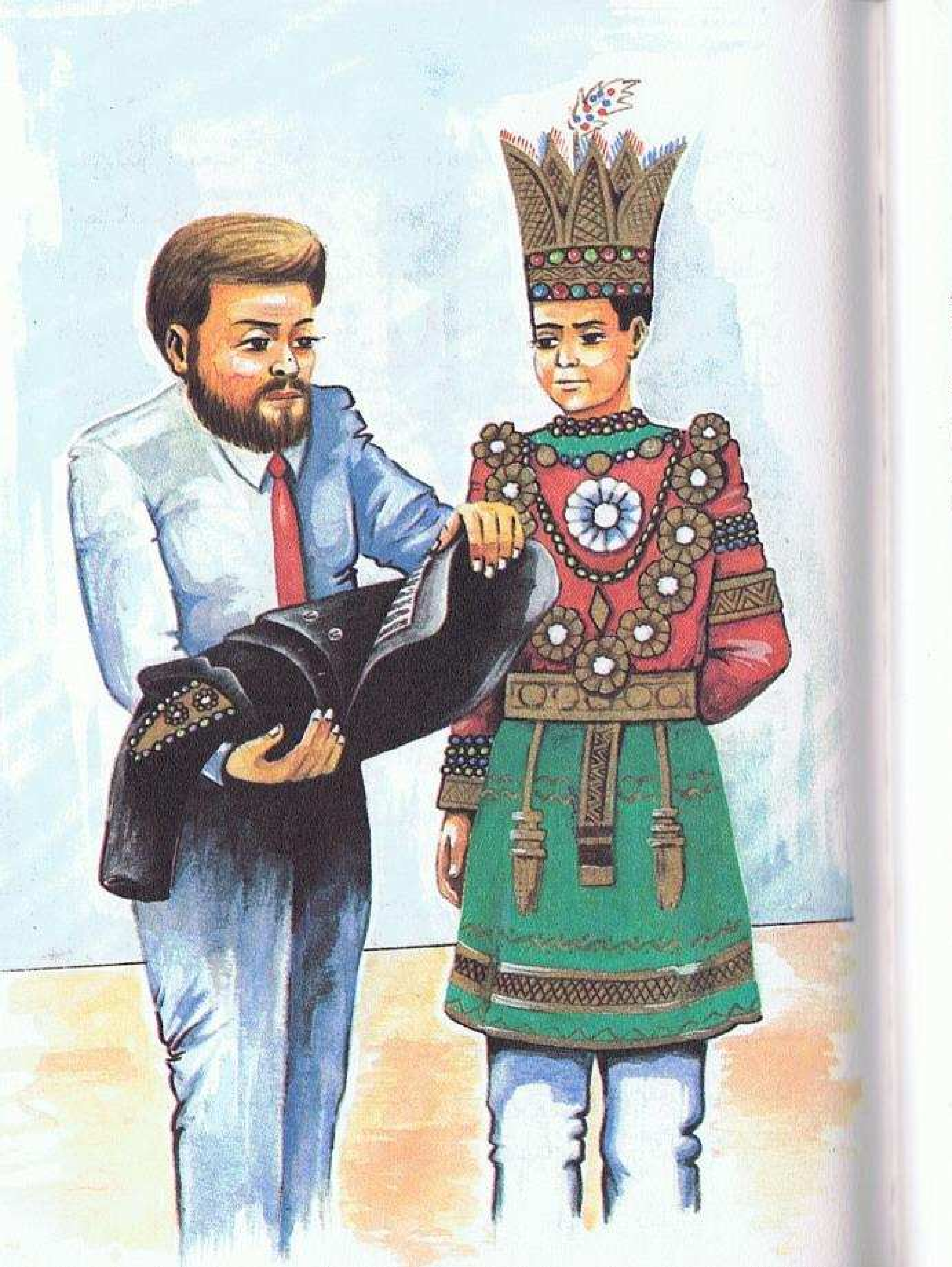
تَراجَعَ مُبْتَعِداً عَنّي ، وَقَدْ بانَ عَلَيْهِ الغَضَبُ ، وَلَمَعَ في عَيْنَيْهِ بَريقٌ حادٌّ ، وَرَفَعَ الرّوكَ صائِحاً : « ماذا تَعْني ؟!»

قُلْتُ بِهُدوءٍ : « سَآخُذُ الرّوك يا صاحِبَ الجَلالَةِ . لَنْ أُغادِرَ البَيْتَ دونَهُ ، وَأَعِدُكَ بِأَنْ أُعيدَهُ خِلالَ أُسْبوعَيْنِ . إِمّا أَنْ تُعْطِيَني إِيّاهُ أَوْ تَسْتَخْدِمَهُ ، ما مِنْ طَريقَةٍ أُخْرى تَتَخَلَّصُ بِها مِنّي .»

وَخُيِّلَ إِلَيَّ لَحْظَةً أَنَّهُ سَوْفَ يَسْتَخْدِمُ الرّوك ضِدّي . لَقَدْ كانَ مَلِكاً ، وَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ عَلى التَّحَدُّثِ إِلى مَلِكِ نابول كَما فَعَلْتُ أَنا! وَكانَتْ عَيْناهُ تَشِعّانِ بِبَريقٍ عَجيبٍ ، وَعَلى وَجْهِهِ بَدَتْ عَلاماتُ خَطَرٍ أُخْرى .

وَأَنْزَلَ يَدَهُ الَّتي تَحْمِلُ السَّيْفَ إِلى جانِبِهِ ، وَهَزَّ رَأْسَهُ ، وَابْتَسَمَ قائِلاً : « إِنَّكَ أَشْبَهُ ما تَكونُ بِأَحَدِ شَياطينِنا يا أُسْتاذُ ! ما مِنْ طَريقَةٍ لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الشَّياطينِ ، وَما مِنْ طَريقَةٍ لِلتَّخَلُّصِ مِنْكَ . فَهَلْ تَعِدُ إِذاً بِإِعادَةِ الرّوك خِلالَ أُسْبوعَيْنِ ؟»

« أَعِدُكَ .»



« وَلَنْ تُخْبِرَ أحَداً بِشَيْءٍ مِمّا حَدَثَ هُنا ؟»

« لَنْ أخْبِرَ أحَداً .»

أطْرَقَ لاني ، ثُمَّ وَضَعَ الروك على طاوِلَةٍ كانَتْ أمامَهُ ؛ إذْ لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يُقَدِّمَ الرّوكَ لِرَجُلٍ غَيْرِ نابوليٍّ ، فَأسْرَعْتُ بِالْتِقاطِ السَّيْفِ وَخَلَعْتُ مِعْطَفي ، وَلَفَفْتُهُ بِهِ ، وَقُلْتُ لِلاني : « سَوْفَ أعيدُهُ إلَيْكَ خِلالَ أسْبوعَيْنِ ، وَفي أثْناءِ ذَلِكَ عَلَيْكَ أنْ تُراجِعَ دُروسَكَ بِكُلِّ جِدِّيَّةٍ .»

وَاسْتَدَرْتُ وَخَرَجْتُ مِنَ المَنْزِلِ ، وَمَضَيْتُ بِسَيّارَتي عَبْرَ كِمْبِرِدْج وَالرّوكُ داخِلَ مِعْطَفي إلى جانِبي . لَقَدِ انْتَحَرَ مَلِكانِ مِنْ مُلوكِ نابول بِذَلِكَ السَّيْفِ المَوْجودِ الآنَ إلى جانِبي . وَفَكَّرْتُ في مَكانٍ أخْفيهِ فيهِ، لَنْ يَكونَ بَيْتي طَبْعاً ، كَما أنَّ البَنْكَ لَمْ يَكُنْ مَفْتوحاً في تِلْكَ السّاعَةِ ؛ لِذا تَوَجَّهْتُ بِهِ إلى المَحَطَّةِ الرَّئيسيَّةِ لِسَيّاراتِ الأتوبيس ، وَهُناكَ أوْدَعْتُهُ إحْدى خَزائِنِ الأماناتِ ، وَأخْفَيْتُ المِفْتاحَ في مَكانٍ سِرِّيٍّ ، وَقُلْتُ في نَفْسي : « إنَّ القَيِّمَ عَلى الرّوك قَدْ يَبْحَثُ عَنْهُ ، وَلا أريدُهُ أنْ يَعْرِفَ مَكانَهُ .»

لَكِنْ لِماذا تَعَهَّدْتُ بِإعادَةِ الرّوك خِلالَ أسْبوعَيْنِ ؟ لَمْ تَكُنْ لَدَيَّ

حينَئِذٍ فِكْرَة مُعيَّنَة ، كُلُّ ما أَرَدْتُهُ كَسْبُ بَعْضِ الوَقْتِ . وَمِنْ حُسْنِ الحَظِّ أَنْ وَقَعَ انْقِلابٌ آخَرُ في نابول بَعْدَ عَشَرَةِ أَيّام فَقَطْ ؛ إِذْ يَبْدو أَنَّ عَمَّ لاني لَمْ يَنْجَحْ في اكْتِسابِ حُبِّ شَعْبِ نابول وَجَيْشِها ، فَثاروا عَلَيْهِ ، وَأَوْدَعوهُ السِّجْنَ ، وَأَصْبَحَ لاني مَلِكًا عَلى نابول مِنْ جَديدٍ . وَما إِنْ عَلِمْتُ بِذَلِكَ حَتّى ذَهَبْتُ إِلى حَيْثُ أَوْدَعْتُ السَّيْفَ، وَأَخَذْتُهُ مِنَ الخزانَةِ ، ثُمَّ اتَّجَهْتُ بِسَيّارَتي إِلى مَنْزِلِ لاني ، وَقَدَّمْتُ لَهُ السَّيْفَ ، فَأَخَذَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَمْ تَكُنْ تَبْدو عَلَيْهِ أَيَّةُ عَلامَةٍ مِنْ عَلاماتِ السَّعادَةِ .

قالَ : « شُكْرًا لَكَ يا أُسْتاذُ . لَكِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ تَغَيُّرَ الأَوْضاع لِصالِحي وَعَوْدَتي إِلى حُكْمِ نابول مِنْ جَديدٍ ، لَنْ يُغَيِّرَ الواقِعَ المَفْروضَ عَلَيَّ ، لا مَفَرَّ لي مِنَ المَوْتِ ، وَعَلى الرّوك أَنْ يُؤَدِّيَ واجِبَهُ. إِنَّ عاداتِنا تَقْضي عَلَيَّ بِأَنْ أَسْتَخْدِمَهُ .»

مَلأَتْني كَلِماتُهُ قَلَقًا ، وَلَكِنَّني حاوَلْتُ الابْتِسامَ وَأَنا أَقولُ لَهُ : «حَسَنٌ ، اِسْتَخْدِمْهُ يا صاحِبَ الـ ... بَلْ يا لاني .»

قالَ : « لَنْ أُقْدِمَ عَلى ذَلِكَ وَأَنْتَ هُنا ، سَوْفَ أَسْتَخْدِمُهُ عِنْدَما تَمْضي .» ثُمَّ أَمْسَكَ عَنِ الكَلامِ ، وَنَظَرَ إِلَيَّ وَقَدْ بَدا عَلَيْهِ حُزْنٌ شَديدٌ ، فَفَكَّرْتُ في اسْتِرْدادِ الرّوك مِنْ جَديدٍ ، لَكِنْ كَيْفَ ؟

وَجَلَسْنا مُتَقابِلَيْنِ ، يَلُفُّنا الصَّمْتُ بِضْعَ دَقائِقَ اسْتَسْلَمَ فيها كُلٌّ مِنّا لأَفْكارِهِ . وَأَخيرًا نَظَرَ إِلَيَّ لاني قائِلاً : « كِدْتُ أَنْسى . عَلَيْنا أَنْ نَزورَ غَدًا في الكُلِّيَّةِ مَزْرَعَةً ذاتَ أَهَمِّيَّةٍ كُبْرى مِنَ النّاحِيَةِ الزِّراعِيَّةِ ، وَلا أُحِبُّ أَنْ تَفوتَنِيْ هَذِهِ الفُرْصَةُ .»

وَغَمَرَنا الضَّحِكُ بَعْدَ ذَلِكَ . وَغادَرْتُ مَنْزِلَ لاني دونَ أَدْنى خَوْفٍ عَلَيْهِ يا بِل ؛ فَنَحْنُ جَميعًا – أَنا وَأَنْتَ وَمَلِكُ نابول أَيْضًا – لانَعْرِفُ ما تُخَبِّئُهُ الأَيّامُ وَالسَّنَواتُ القادِمَةُ مِنْ أَحْداثٍ ، لَكِنَّني أَعْرِفُ شَيْئًا واحِدًا مُؤَكَّدًا هُوَ أَنَّ الرّوك لَنْ يَقْتُلَ أَحَدًا بَعْدَ الآنَ .

يا لَها مِنْ رِسالَةٍ طَويلَةٍ ! لَكِنَّ عُذْري أَنّي وَجَدْتُ حِكايَةً أَرْويها .

أَرْجو أَنْ تَكْتُبَ لي في أَقْرَبِ فُرْصَةٍ ، وَنَحْنُ جَميعًا نُرْسِلُ إِلَيْكَ تَحِيّاتِنا . لَقَدْ خَطَرَتْ لي الآنَ فِكْرَةٌ طَريفَةٌ: لِماذا لا تَأْتي إِلى كِمْبِرْدْج وَتُصْبِحُ أُسْتاذًا ، وَأَتَوَلّى أَنا مَسْئولِيَّةَ جُنودِكَ ؟! لَعَلّي بِذَلِكَ أَجِدُ شَيْئًا مِنْ راحَةِ البالِ !

أخوك المحب

غرايام

التَّسَلُّقُ

كُلِّيَّةُ القدِّيس جود

كِمبرِدْج

في ١٥ مارس (آذار)

عزيزي بل ،

حقًّا إنَّهُ لنبأٌ رائعٌ ! وَيالَها مِنْ مُفاجأةٍ سارَّةٍ ! لَقَدْ بَحَثْتُ عَنِ المكانِ على الخَريطةِ فَوجَدْتُهُ يَبْعُدُ عنّا سِتّينَ كيلومترًا فقط. وَسَيَكونُ مِنَ المُمْتعِ حقًّا أنْ نَتناوَلَ الغداءَ معًا يومَ الأحدِ مِنْ كُلِّ أسبوعٍ ، وَعِنْدَما تأتي إلَيْنا سَوْفَ تُصْبحُ عَميدًا وَقائدًا لِمنطَقةٍ بأكْمَلِها ، وَكَمْ سَتكونُ مَحظوظةً هذهِ المِنْطَقةُ !

يُمكنُكَ بَعْدَ كُلِّ هذا – بالطَّبْعِ – أنْ تَمكُثَ مَعَنا ؛ بَلْ نَرْجوكَ أنْ تُقيمَ مَعَنا مُدَّةَ سِتَّةِ أسابيعَ ؛ تَبْدأُ مِنَ اليَوْمِ الَّذي تُغادِرُ فيهِ ألْمانيا، وَتَنْتهي باليَوْمِ الَّذي تُباشِرُ فيهِ عَمَلَكَ الجَديدَ ، عَميدًا وَقائدًا لِهذهِ

المِنْطَقةِ . وَلَدَيْنا غُرْفَةٌ لَكَ ، وَهِيَ غُرْفَةُ الصَّغيرِ بِل الَّذي سَيَنْتَقِلُ إلى غُرْفَةِ جيمي ، وَالصَّبِيّانِ مَسْروران لِذَلِكَ ، وَالغُرْفَةُ لَطيفَةٌ وَمُناسِبَةٌ ، وَبالطَّبْعِ لَنْ نَكونَ في حاجَةٍ إلى تَبادُلِ الرَّسائِلِ لأنَّنا سَنكونُ مَعًا ، وَما أجْمَلَ ذَلِكَ !

وَلكِنْ ، دائِمًا تُواجِهُني المُشْكِلَةُ القَديمَةُ المُتَجَدِّدَةُ ؛ إذْ عَلَيَّ أنْ أبْحَثَ عَمّا أسْتَطيعُ أنْ أخْبِرَكَ بِهِ ، فَحَياةُ الأسْرَةِ هادِئَةٌ ، وَديزي وَالأوْلادُ في صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ ، وَعَمَلي يَسيرُ عَلى ما يُرامُ ، وَلَيْسَ هُناكَ ما يُثيرُ .. لا .. ثَمَّةَ شَيْءٌ واحِدٌ أثارَني أنا عَلى الأقَلِّ ؛ فَقَدْ تَسَلَّقْتُ بُرْجَ أوِلْد جاسبَر !

قَدْ لا تَرى أنْتَ في ذَلِكَ ما يُثيرُ ، فَأنْتَ تَعْلَمُ أنَّني سَبَقَ أنْ تَسَلَّقْتُهُ مُنْذُ عِشْرينَ عامًا ، عِنْدَما كُنّا طالِبَيْنِ . هَلْ تَذْكُرُ ذَلِكَ يا بِل؟ يَوْمَها تَسَلَّقْتُ البُرْجَ حَتّى قِمَّتِهِ وَ وَضَعْتُ أعْلاهُ قَصْرِيَّةَ أطْفالٍ ، وَكانَ مَنْظَرًا طَريفًا ، ضَحِكْنا مِنْهُ كَثيرًا نَحْنُ وَزُمَلاؤُنا الطُّلّابُ الآخَرونَ .

مُنْذُ خَمْسينَ سَنَةً ، وَكَثيرٌ مِنَ الطُّلّابِ يَتَسَلَّقونَ أبْنِيَةَ كِمْبِرِدْج، وَيَضَعونَ القَصْرِيّاتِ عَلى أعْلى قِمَّةٍ بِها . وَطَبْعًا لَمْ يَكُنْ هَذا النَّوْعُ مِنَ الرِّياضَةِ يَروقُ أعْضاءَ هَيْئَةِ التَّدْريسِ بِالجامِعَةِ ، الَّذينَ جَعَلوا

عُقوبَةَ مَنْ يَقومُ بِذَلِكَ الفَصْلَ مِنَ الجامِعَةِ ، وَرَغْمَ ذَلِكَ لَمْ يُرْتَدِعِ المُتَسَلِّقونَ، وَإِنْ تَناقَصَ عَدَدُهُمْ كَثيراً بِالطَّبْعِ ، وَرُبَّما كُنْتُ أنا آخِرَ مَنْ تَسَلَّقَ أولْد جاسْبَر ، وَتَرَكَ عَلَيْهِ قَصْرِيَّةَ أطْفالٍ . إنَّكَ تَذْكُرُ أنَّ التَّسَلُّقَ كانَ المَجالَ المُفَضَّلَ عِنْدي ، وَقَدْ كُنْتَ تَفوقُني في شَتَّى الألْعابِ الرِّياضِيَّةِ ، أمَّا التَّسَلُّقُ فَكانَ رِياضَتي .

لَكِنْ لِماذا تَسَلَّقْتُ أولْد جاسْبَر ثانِيَةً ؟

حَدَثَ ذاتَ صَباحٍ مُنْذُ ثَلاثَةِ أسابيعَ أنْ أحاطَ بِكِمْبِرْدِج ضَبابٌ كَثيفٌ جَعَلَ مَدى الرُّؤْيَةِ فيها لا يَتَجاوَزُ المِتْرَيْنِ . وَفوجِئْتُ عِنْدَ وُصولي إلى الكُلِّيَّةِ بِحَواجِزَ تَسُدُّ جَميعَ المَداخِلِ ، وَأمامَها عَدَدٌ مِنْ رِجالِ الشُّرْطَةِ ، فَسَألْتُ أحَدَ الضُّبّاطِ الواقِفينَ : « لِمَ وَضَعْتُمْ هَذِهِ الحَواجِزَ ؟ أنا غرايام ريد ، أسْتاذٌ بِهَذِهِ الكُلِّيَّةِ .»

أجابَ الضّابِطُ : « حَسَنٌ يا سَيِّدي ، فَقَدْ تَلَقَّيْنا مُكالَمَةً تِليفونِيَّةً مِنْ مَجْهولٍ قالَ فيها إنَّهُ يَتَحَدَّثُ بِاسْمِ جَماعَةٍ نَعْرِفُ الكَثيرَ عَنْها .»

وَأنْتَ أيْضاً يا بِل تَعْرِفُ الكَثيرَ عَنْهُمْ ؛ فَقَدْ قاموا في السَّنَواتِ الأخيرَةِ بِوَضْعِ عَدَدٍ مِنَ القَنابِلِ في أماكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ مِنْ إنْجِلْترا ، قَتَلَتِ الكَثيرينَ وَهَدَّمَتْ عَدَداً مِنَ المَباني .

وَتابَعَ الضّابِطُ حَديثَهُ : « قالَ هَذا الشَّخْصُ المَجْهولُ إنَّ في كِمْبِرْدِج قُنْبُلَةً ، وَحَدَّدَ مَكانَها في البُرْجِ عَلى حَدِّ قَوْلِهِ .» ثُمَّ أشارَ الضّابِطُ عَبْرَ الضَّبابِ في اتِّجاهِ أولْد جاسْبَر .

سَألْتُهُ : « هَلْ تَعْتَقِدُ أنَّ الأمْرَ صَحيحٌ ؟»

أجابَني : « لا ، رُبَّما لا يَكونُ صَحيحاً ، لَكِنَّنا لَنْ نُخاطِرَ ،

وَعَلَيْنا أنْ نَحْتاطَ لِلأمْرِ ، فَلا نَسْمَحَ لَكُمْ بِالدُّخولِ يا سَيِّدي .»

قُلْتُ : « ماذا أنْتُمْ فاعِلونَ بِشَأنِ القُنْبُلَةِ ؟»

قالَ : « لا نَسْتَطيعُ أنْ نَفْعَلَ شَيْئًا في هَذا الضَّبابِ ، وَعِنْدَما يَنْقَشِعُ ، سَنُرْسِلُ طائِرَةً عَموديَّةً لِتَفَقُّدِ المَكانِ ، وَإنْ كُنْتُ أعْتَقِدُ أنَّهُ ما مِنْ شَيْءٍ هُناكَ .»

وَ وَقَفْتُ بُرْهَةً أُفَكِّرُ في الأمْرِ ، وَقُلْتُ في نَفْسي : « إذا كانَتِ القُنْبُلَةُ مَوْجودَةً فِعْلاً فَإنَّها قَدْ تَنْسِفُ بُرْجَ أولْد جاسْبَر ، الَّذي أُقيمَ مُنْذُ سِتِّمِئَةِ عامٍ ، وَهُوَ أعْلى بُرْجٍ في كِمْبِرِدْج ، وَمِنْ أهَمِّ آثارِها الجَميلَةِ حَقًّا . كَمْ سيَكونُ الوَضْعُ رَهيبًا لَوْ كانَتْ هُناكَ قُنْبُلَةٌ!

وَقَفَزَتْ إلى ذِهْني فِكْرَةٌ مُفاجِئَةٌ ؛ إذا كانَتِ الطّائِرَةُ العَموديَّةُ لاتَسْتَطيعُ بُلوغَ ذَلِكَ البُرْجِ في الضَّبابِ فَإنَّ إنْسانًا يَسْتَطيعُ ذَلِكَ .

وَذَهَبْتُ مِنْ فَوْري إلى المَنْزِلِ ، وَارْتَدَيْتُ ثِيابًا تَصْلُحُ لِلتَّسَلُّقِ ، وَأخَذْتُ طَريقي إلى الكُلِّيَّةِ مُسْتَفيدًا مِنْ مَعْرِفَتي بِالطُّرُقِ المُحيطَةِ بِها ، مُسْتَخْدِمًا طَريقًا تُيَسِّرُ لِيَ الدُّخولَ بَعيدًا عَنْ حَواجِزِ الشُّرْطَةِ . وَما إنْ وَصَلْتُ إلى مَوْقِعِ البُرْجِ حَتّى بَدَأتُ التَّسَلُّقَ .

كانَ الأمْرُ غَريبًا جِدًّا وَمُثيرًا إلى حَدٍّ كَبيرٍ ؛ فَعِنْدَما تَسَلَّقْتُ أولْد

جاسْبَر مِنْ قَبْلُ كانَ القَمَرُ ساطِعًا ، وَالرُّؤْيَةُ واضِحَةً ، وَتَمَكَّنْتُ مِنَ الرُّؤْيَةِ عَلى مَدى كيلومِتْراتٍ عَبْرَ الرّيفِ المُحيطِ بِهِ ، وَكانَ المَشْهَدُ جَميلاً حينَئِذٍ . أمّا هَذِهِ المَرَّةَ فَكانَ كُلُّ شَيْءٍ يَكْسوهُ الضَّبابُ ، وَلَمْ تَتَجاوَزْ رُؤْيَتي الحَجَرَ الَّذي أمامي أعْلى البُرْجِ ؛ فَقَدْ بَلَغَ الضَّبابُ مِنَ الكَثافَةِ حَدًّا جَعَلَني لا أسْتَطيعُ مَعَهُ رُؤْيَةَ يَدي ، وَكانَ عَلَيَّ أنْ أتَحَسَّسَ ما أتَعَلَّقُ بِهِ .

وَبَعْدَ نَحْوِ ساعَتَيْنِ مِنَ التَّسَلُّقِ عَبْرَ الضَّبابِ الكَثيفِ ، بَدَأتُ أُحِسُّ بِأنَّ السَّطْحَ الخارِجِيَّ لِلْبُرْجِ يَميلُ لِلدّاخِلِ ؛ فَعَرَفْتُ أنّي قَريبٌ مِنَ القِمَّةِ .

مَدَدْتُ يَدَيَّ أبْحَثُ عَنْ مَكانٍ أتَعَلَّقُ بِهِ ، فَلَمَسْتُ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَلْمَسُ الحَجَرِ ، فَسَحَبْتُ يَدَيَّ عَلى الفَوْرِ ، وَتابَعْتُ التَّسَلُّقَ في حَذَرٍ شَديدٍ حَتّى صارَ وَجْهي قَريبًا مِنْ ذَلِكَ الشَّيْءِ المَوْجودِ عَلى القِمَّةِ ، فَرَأيْتُ صُنْدوقًا مَعْدِنيًّا ، تَتَدَلّى مِنْهُ بَعْضُ الأسْلاكِ .

يا إلَهي ! صُنْدوقٌ مَعْدِنِيٌّ ! لابُدَّ أنَّهُ قُنْبُلَةٌ ! نَعَمْ إنَّها هِيَ ، لَكِنْ ماذا أفْعَلُ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَلا عِلْمَ لي بِشَيْءٍ عَنِ القَنابِلِ ؟! وَأدْرَكْتُ مَدى حَماقَتي ؛ فَكَيْفَ لَمْ أُفَكِّرْ في ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ ؟ وَلِماذا تَسَلَّقْتُ وَوُجودُ قُنْبُلَةٍ أمْرٌ لَيْسَ بَعيدًا عَنِ الاحْتِمالِ ؟ وَقَرَّرْتُ أنْ أنْزِلَ لأنْقُلَ

الخَبَرَ لأحَدِ المُخْتَصِّينَ ، فَلَعَلَّ هُناكَ فُسْحَةً في الوَقْتِ تُتيحُ تَدارُكَ المَوْقِفِ قَبْلَ أنْ تَنْفَجِرَ القُنْبُلَةُ .



وَلكِنّي عُدْتُ فَخَشيتُ أنْ يَفوتَ الأوانُ ، وَتَنْفَجِرَ القُنْبُلَةُ ، وَتَنْسِفَ أولْد جاسْبَر . لا ، لَنْ أسْمَحَ بِذَلِكَ أبَداً !

وَاقْتَرَبْتُ بِأُذُني – في حَذَرٍ شَديدٍ – مِنَ الصُّنْدوقِ المَعْدِنِيِّ ، وَأرْهَفْتُ السَّمْعَ طَويلاً ؛ فَلَمْ أسْمَعْ أيَّ صَوْتٍ يَصْدُرُ عَنْهُ كَصَوْتِ السّاعَةِ ؛ لِذا أمْسَكْتُ الأسْلاكَ بِيَدَيَّ ، وَأغْمَضْتُ عَيْنَيَّ ، وَسَحَبْتُها.

أدْهَشَني أنَّ شَيْئاً لَمْ يَحْدُثْ ؛ وَلَمْ يَحْدُثْ دَوِيٌّ ، وَما زِلْتُ في مَكاني كَما كُنْتُ ، وَفَتَحْتُ عَيْنَيَّ بِبُطْءٍ ، فَوَجَدْتُ الأسْلاكَ قَدْ أزاحَتْ غِطاءَ الصُّنْدوقِ عِنْدَما سَحَبْتُها ، وَنَظَرْتُ – بِحِرْصٍ شَديدٍ – في الصُّنْدوقِ ، فَوَجَدْتُ بِداخِلِهِ قَصْرِيَّةَ أطْفالٍ زَرْقاءَ لامِعَةً مَرْسوماً عَلَيْها قِطَطٌ حَمْراءُ زاهِيَةٌ !

اِعْتَرَتْني نَوْبَةٌ مِنَ الضَّحِكِ دامَتْ طَويلاً ، رَغْمَ ما في ذَلِكَ مِنْ خَطَرٍ عَلى مُتَسَلِّقٍ لأعْلى قِمَّةٍ في كِمْبِرْدْج .

وَبَدَأْتُ في النُّزولِ حامِلاً مَعي القَصْرِيَّةَ ، وَغَضِبَ رِجالُ الشُّرْطَةِ عِنْدَما أخْبَرْتُهُمْ بِما وَجَدْتُ ، وَكانَ مِنْ حَقِّهِمْ أنْ يَغْضَبوا ؛ وَلكِنْ سُرْعانَ ما انْفَجَرْنا جَميعاً في الضَّحِكِ ، وَتَرَكوا لِي القَصْرِيَّةَ لآخُذَها مَعي إلى البَيْتِ .

وَهكَذا يا عَزيزي تَرى أنّي ما زِلْتُ قادِراً عَلى التَّسَلُّقِ . وَعِنْدَما تَنْزِلُ ضَيْفاً عَلَيْنا في حُجْرَةِ الصَّغيرِ بِل سَتَجِدُ عَلى الخِزانَةِ أزْهاراً في قَصْرِيَّةٍ زَرْقاءَ جَميلَةٍ ، عَلَيْها القِطَطُ الحَمْراءُ الجَميلَةُ .

لَكَ تَحِيّاتُنا القَلْبِيَّةُ .

أخوك المغامر

غرايام

المغامرات المثيرة



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت

رقم الكمبيوتر 01 C 198220